انطوان ده سانت-اكزوبري



ارض البشر





TERRE des HOMMES

Editions GALLIMARD

أنطوان دو سانت - اكزوبري

أرض البشر

نقلها إلى العربية

جوزف صايغ

ابتكر رسم الغلاف للنص العربي

هنري دي موزون

المنشورات العربية



هذي غيومك ، يا صديقي ،
أهدي إليك هذا الكتاب



ان الارض تفيدنا عن انفسنا اكثر مما تفيدنا جميع الكتب . ذلك انها تقاومنا . فالانسان يكتشف نفسه عندما يتحكك بالعقبة. ولكنه يحتاج الى اداة كي يبلغها . يلزمه مِنجَر ، او محراث . الفلاح ، عندما يحرث الارض ، ينتزع شيئًا فشيئًا بعض الاسرار من الطبيعة ، والحقيقة التي يستخرجها هي حقيقة كونية . هكذا الطيارة ، أداة الخطوط الجوية ، تمزج الانسان بجميع المعضلات القديمة .

ما تزال ، امام عيني ، صورة اول ليلة لطيراني في الارجنتين ، ليلة قاتمة ، حيث تلتمع وحدها ، كما النجوم ، تندى الاضواء البديدة في السهل .

كان كل منها يشير ، في اوقيانوس الظلمات هذا ، الى اعجوبة وعي . في هذا المكان انسان يقرأ ، يفكِّر ، يواصل البوح . في ذاك ، لعل ثمة من يسعى لسَبْر الفضاء ، يُفني نفسه في حسابات تتعلق بمجرة اندروميد . ههنا انسان يحب . وابعد فأبعد تأتلق في الريف تلك النيران التي تطالب بغذائها . حتى ابلغها خفوتا ، نار الشاعر ، المعلّم ، النجّار . ولكن بين هذه النجوم الحية ، كم من نافذة موصدة ، كم من نجمة مطفأة ، كم من انسان نائم . . .

على انه لا بد من السعي الى لقاء . ولا بد من السعي للاتصال ببعض هذه النيران التي تشتعل ابعد فأبعد في الريف .



الفصل الأول

الخط

كان ذلك عام ١٩٢٦ . وكنت قد التحقت حديثاً كطيار متدرِّب على الخطّ بشركة لاتيكوير التي أمَّنت ، قبل شركة « الأيروبوستال » ، ثم « اير فرانس » ، مواصلات تولوز ـ دكار . هنالك تعلَّمت المهنة . وكسائر الرفاق ، اجتزت بدوري الامتحان الذي يجتازه المبتدئون قبل ان يتشرفوا بقيادة طيارة البريد .

امتحان الطيارات ، تنقلات بين تولوز وبِرّبينيان ، دروس أليمة في الارصاد الجوية في قاع عنبر جليدي . كنا نحيا في

خشية من جبال اسبانيا التي لم نكن قد عرفناها بعد ، وفي احترام القدامى •

هؤلاء القدامى ، كنّا نلتقيهم في المطعم ، غليظين ، بعداء قليلا ، يمنّون علينا بنصائهم من شاهق • وحينما كان احدهم يعود من أليكانت او الدار البيضاء ويلحق بنا متأخراً ، وقد ابتلّ جلد سترته بالمطر ، فيسأله احدنا ، بحياء ، عن رحلته ، فان اجوبته المقتضبة ، وايام العاصفة ، كانت تبني لنا عالماً اسطورياً ، مليئاً بالشرك ، بالمغاوي ، بالجرف التي تبرز فجأة ، ودوّام امواج لو اصابت الارز لاجتثته •

كانت التنانين السود تحمي مدخل الاودية وجرز البروق تكلل القنن • لقد كان هؤلاء القدامى يعززون احترامنا بمهارة • ولكن ، من وقت الى آخر ، كان احدهم لا يعود ، وقد بات محترماً الى الابد •

★★★

اذكر عودة كهذه لبوري ، الذي لاقى حتفه مذ ذاك في الكوربيير • كان هذا الطيّار القديم قد جلس حديثاً بيننا وراح

يأكل بفظاظة دون ان ينبس ببنت شفة ، فيما كتفاه ما زالتا مسحوقتين بالجهد • كان ذلك عشية احد تلك الايام المكفهرة التي كانت السماء فيها منتنة من ادنى الخط الى اقصاه ، بحيث تبدو جميع الجبال للطيّار تتمرّغ في القذارة كتلك المدافع التي تقطّعت حبالها فراحت تحرث جسر المراكب الشراعية القديمة •

نظرت الى بوري ، ازدرت لعابي وجازفت بسؤاله اخيراً هل كان طيرانه عسيراً • لم يكن بوري يسمع ، بل كان مقطّب الجبهة ، مكبّاً فوق صحنه • لقد كانوا ، على متن الطيّارات المكشوفة ، ينحنون ، عندما يسوء الطقس ، خارج الزجاج لكي يتمكنوا من رؤية افضل ، فكانت سياط الهواء تظل تصفر طويلا في آذانهم • اخيراً ، رفع بوري رأسه ، فبدا كأنه يسمعني ، يتذكّر ، وينطلق فجأة في ضحكة صافية • وهذه الضحكة فتنتني، لأن بوري قلّما كان يضحك هذه الضحكة المختصرة التي كانت تضيء تعبه • لم يعط اي شرح آخر عن انتصاره ، ثم أحنى رأسه واستأنف مضغه صامتاً • لكن هذا الرفيق الثقيل الكتفين ، في غبش المطعم ، بين صغار الموظفين الذين يستريحون هنا من اتعاب النهار الوضيعة ، بدا لي ذا نبالة غريبة ، كان يبرز من تحت قشرته

القاسية ذلك الملاك الذي هزم التنين •

حلّ اخيراً المساء الذي استدعيت فيه بدوري الى مكتب المدير • قال لي هذا ببساطة :

ــ « ستذهب غداً • »

بقيت مكاني ، منتظراً ان يصرفني • لكنه أضاف ، بعد صمت :

ــ « تعرف التعليمات جيداً ؟ »

لم تكن المحرّكات ، في تلك الحقبة ، لتضمن الاطمئنان الذي تضمنه محركات اليوم • فغالباً ما كانت تتخلّى عنا دفعة واحدة . دونما تحذير ، في مثل الجلبة الكبرى التي يحدثها تحطّم الصحون • فكنا نستسلم الى قشرة اسبانيا الصخرية التي لم تكن لتوفّر لنا اي مأوى • « هنا ، كنا نقول ، عندما ينكسر المحرّك ، فان الطيارة ، ويا للاسف ! سرعان ما تلحق به » • لكنما الطيارة شيء يستعاض عنه • كان المهم ، قبل كل شيء ، ألاّ نداني الصخر مداناة أعمى • لذا كانوا يحظّرون علينا ، تحت طائلة اشد العقاب ، التحليق فوق بحار الغيوم التي تغطي المناطق

الجبلية • لان الطيار عند العطل ، اذا ما اخترق الدّسار الابيض اصطدم بالقمم دون ان يراها •

لهذا كان صوت بطيء يشدّد ، في ذلك المساء ، على التعليمات للمرة الاخيرة :

« جميل جداً الطيران على هدى البوصلة ، في اسبانيا ، فوق بحار الغيوم ، هذا أنيق جداً ، ولكن ••• »

وببطء أشد :

« ••• ولكن تذكّر : تحت بحار الغيوم ، انها الأبدية ••• »

ها هوذا فجأة ، ذلك العالم الهادىء ، الشديد التجانس ، والبساطة ، الذي نكتشفه لدى انبلاجنا من الغيوم ، يتّخذ في نظري قيمة مجهولة • كانت تلك العذوبة تستحيل شركاً • وكنت اتصوّر ذلك الشرك الشاسع الابيض مرصوفاً ، ههنا ، تحت قدمي • وليس يسود دونه ، كما كنا نظن ، هياج الناس ، ولا الجلبة ، ولا مواصلات المدن الحية ، وانما صمت اكثر اطلاقاً ايضاً ، سلام نهائي اكثر • لقد اصبح ذلك الدّبق الابيض عندي الحد الفاصل بين الواقع والوهم ، بين المعلوم والمجهول •

وكنت قد بدأت اتبيّن ان لا معنى لاي مشهد ، اللهم الاّ من خلال ثقافة ما ، او حضارة ، او مهنة . الجبليون يعرفون ايضاً بحار الغيوم . ولكنهم مع هذا لا يكتشفون فيها ذلك الستار الخرافي .

★★★

لما خرجت من ذلك المكتب ، شعرت بزهو صبياني . سأكون بدوري ، منذ الفجر ، مسؤولا عن حمل من المسافرين ، مسؤولا عن بريد افريقيا . لكني شعرت ايضاً بخشوع كبير . احسستني غير مهيأ . كانت اسبانيا فقيرة بالملاجيء ، وكنت اختشى ، بازاء العطل النذير ، ألاّ اعرف اين ابحث عن محطّ في حقل نجدة . كنت قد انحنيت على قحط الخرائط دون ان اجد فيها التعاليم التي كنت بحاجة اليها ، وهكذا مضيت بقلب يترعه مزيج من الحياء والكبرياء ، لقضاء سهرة المعركة عند رفيقي « غيّومه » . كان « غيّومه » قد تقدمني على تلك الدروب . كان يعرف الحيل التي تسلم مفاتيح اسبانيا . كنت احتاج الى التدرّج على يديه .

لما دخلت عليه ، ابتسم :

ــ « اعرف الخبر . هل انت مسرور ؟ »

ومضى الى الخزانة يحضر « البورتو » والاقداح ، ثم عاد اليّ ، وهو ما يزال باسماً :

ـ سنشرب نخب هذا . سوف ترى ، سيجري كل شيء على ما يرام .

كان يشيع الثقة كما يشيع المصباح الضوء ، هذا الرفيق الذي سجّل، فيما بعد ، الرقم القياسيّ في الرحلات البريدية فوق جبال « الآند » والاطلسي الجنوبي .

قبل هذا بسنوات ، قال لي ببساطة ، ذلك المساء ، وكان بدون سترة ، مكتوف الذراعين تحت المصباح ، يبتسم برفق :

ـ « العواصف ، الضباب ، الثلج ، احياناً سيضايقك هذا . فكّر آنئذ بجميع الذين عرفوا ذلك قبلك ، وقل لنفسك فقط : « يمكننا دائماً ان ننجح حيث نجح سوانا . »

بيد اني ، مع ذلك ، نشرت خرائطي وطلبت اليه ان يعيد النظر ، معي ، في الرحلة ، وانحنيت تحت المصباح ، مستنداً الى الى منكب الطيار القديم ، فاستعدت طمأنينة ايام المدرسة .



يا لها من امثولة عجب تلقيتها في الجغرافيا • ما علّمني « غيّومه » اسبانيا فقط بل جعلها صديقة لي •

لم يحدثني عن مشاكل الماء ، ولا عن السكان ولا عن المانية • لم يحدثني عن قادش ، وانما عن شجرات البرتقال الثلاث التي كانت على حدود حقل قرب قادش : « احذرها ، علّمها على خريطتك ••• » واحتلت مذ ذاك شجرات البرتقال الثلاث مكاناً على الخريطة اوسع من مكان السيرا نيفادا • لم يحدّثني عن لوركا ، بل عن مزرعة بسيطة قربها • عن مزرعة حيّة • وعن مزارعها • وعن مزارعتها • وراح هذان الزوجان الضائعان في المدى ، على مسافة الف وخمسمائة كيلومتر عنا ، يكتسبان أهميّة لا حد لها •

كانا ، على منحدر جبلهما ، حيث استقر ا كحارسي منارة ، على استعداد ، تحت نجومهما ، لنجدة الناس •

وهكذا كنا ننتزع من النسيان ، من البعيد اللا معقول ، تفاصيل يجهلها جميع جغرافيي العالم • ان نهر الايبر وحده ، لانه يسقي مدنا كبرى ، يهم الجغرافيين ، وليس تلك الساقية المخبأة تحت العشب غربي « الموتريل » • هذا الوالد ، مرضع ثلاثين

زهرة : « احذر الساقية ، انها تفسد الحقل ... علّمها ايضا على خريطتك ... » آه ! سوف اتذكر حيَّة الموتريل . فهي لم تكن بذي بال وبالكاد كانت تفتن ، بوشوشتها الخفيفة ، بعض الضفادع ، ولكنها كانت ساهرة العين . كانت تتربَّص بي في فردوس حقل النجدة ، مستلقية تحت العشب ، على مسافة ألفي كيلومتر من هنا . ولدى اول فرصة قد تحيلني الى جرزة من اللهب ...

كنت انتظر كذلك بعزم خراف القتال الثلاثين تلك ، الموزّعة هناك ، على سفح الرابية ، على استعداد للهجوم : « تحسب هذا الحقل خاليا ! »

وانا كنت اجيب بابتسامة مسحورة عن خطر غادر .

وهكذا ، تحولت اسبانيا على خريطتي ، شيئاً فشيئاً ، تحت المصباح ، الى بلد حكايات الجن . كنت اشير بصليب الى الملاجيء والاشراك ، أشير الى هذا المزارع ، الى هذه الخراف الثلاثين ، الى هذه الساقية . كنت أعيّن بالضبط موضع تلك الراعية التي اهملها الجغرافيون .



لما استأذنت « غيّوميه » بالانصراف ، شعرت بحاجة الى السير في تلك العيشة الباردة من عشايا الشتاء • رفعت قبّة معطفي ورحت انزّه ، بين المارة الجاهلين ، حرارة فتية • كنت معتزاً بأن أجانب هؤلاء المجهولين وقلبي عامر بسرّي • انهم يجهلونني ، هؤلاء البرابرة ، واما همومهم ، واما توثّباتهم ، فانما يستودعونني اياها ، انا ، عند طلوع النهار ، مع حمل اكياس البريد • بين يدي يتحرّرون من آمالهم • هكذا رحت متدثراً بمعطفي ، انقّل بينهم خطى عطوفة ، وهم لا يدرون بحناني •

ما كانوا كذلك يتلقّون الرسائل التي كنت اتلقّاها من الليل • كانت تهمّ حتى لحمي تلك العاصفة الثلجية التي ربما كانت تنهيأ وقد تعقّد رحلتي الاولى • كانت نجوم تنطفىء واحدة واحدة ، وأنىّ لهؤلاء المتنزهين ان يعلاموا ؟ كنت وحدي مطّلعاً على السر • كنت اتبلّغ مواقع العدو قبل المعركة •••

بيد ان هذه الاوامر التي كانت تلزمني الزاماً خطيراً ، كنت اتلقاها قرب الواجهات المضاءة ، حيث تلتمع هدايا الميلاد • ههنا بدت جميع خيرات الارض معروضة ، في الليل ، وكنت اتذوق

كبرياء نشوة التخلي • لقد كنت محارباً مهدّداً • فما همّني هذه البلّوريات الوهّاجة المعدّة لأعياد المساء ، ورادعات الضوء على المصابيح ، وهذه الكتب • لقد غرقت في الضباب ، وأخذت ، كطيار الخطّ ، باللبّ المرير من ليالي الطيران •

★★★

كانت الساعة الثالثة صباحاً لمّا ايقظوني • دفعت ستار النافذة بحدّة فلاحظت انها تمطر على المدينة ولبست ثيابي متهيباً•

بعد نصف ساعة انتظرت بدوري ، وانا جالس على حقيبتي الصغيرة فوق الرصيف الملتمع بالمطر أن تمرّ سيارة النقل فتقلني• كم من رفيق قبلي عانى يوم التكريس مثل هذا الانتظار على بعض انقباض • واخيراً برزت ، عند زاوية الشارع ، مركبة الامس وهي تثير جلبة الحدائد العتيقة ، وحقّ لي بدوري ، كسائر الرفاق ، ان أزحم نفسي على المقعد بين الجمركي الذي لمّا يستفق تماماً وبعض موظفي المكاتب • كانت تفوح من تلك المركبة رائحة الهواء الحبيس ، رائحة الادارة الغبراء ، المكتب العتيق حيث تنطمر حياة انسان • كانت تتوقف كل خمسماية متر لتحمل كاتباً

آخر ، جمركياً اخر او مفتّشاً . الذين استسلموا للنوم في السيارة كانوا يردّون بغمغمة مبهمة على تحية القادم الجديد الذي كان يحشر نفسه ، كيفما استطاع ، ثم ينام بدوره . يا له من حشد حزين ، على طرق تولوز المتفاوتة ، وطيار الخط الذي اختلط بالموظفين عاد لا يتميز بادىء الامر عنهم ... لكن المصابيح كانت تمرّ ، والمطار يدنو ، غير ان سيارة النقل العتيقة المترجرجة لم تعد سوى خرنقة رمادية يخرج الانسان منها متجلّياً .

كان كل رفيق ، في صباح مماثل ، يشعر في ذاته ، تحت المرؤوس الضعيف الذي ما زال خاضعاً لرحمة هذا المفتش ، يولد المسؤول عن بريد اسبانيا وافريقيا ، يولد ذلك الذي ، بعد ثلاث ساعات ، سيواجه ، وسط البروق ، تنين الاوسبيتاليه ... الذي ، بعد اربع ساعات ، وقد هزمه ، سيقرّر ، بكامل الحرية ومطلق الصلاحية ، هل يدور عن طريق البحر ام يقتحم جبال « ألكوي » ، ذلك الذي يتعاطى والعاصفة ، والجبل ، والمحيط .

كل رفيق احسّ ، وقد اختلط بالفريق الغفل تحت سماء تولوز الشتائية الجهماء ، احس في مثل هذا الصباح ، بسيّد يكبر في نفسه ، بذلك السيّد الذي يروح ، بعد خمس ساعات ،

وقد خلّف وراءه امطار الشمال وثلوجه ، وطرد الشتاء ، يخفف من سرعة المحرك ويبدأ هبوطه في عزّ الصيف ، في شمس أليكانت الساطعة .

توارت تلك المركبة العتيقة ، لكن خشونتها وشظفها بقيا حيّين في ذاكرتي . كانت ترمز جيداً الى التهيئة اللازمة للافراح القاسية في مهنتنا . كل شيء فيها كان يكتسب زهداً آخّاذاً . واذكر اني بلّغت فيها ، بعد ثلاث سنوات ، ودون ان يجري تبادل عشر كلمات ، وفاة الطيار « لكريفان » ، واحد من مائة رفيق على الخط اخذوا تقاعدهم الابدي ، ذات يوم او ليلة ضباب .

كانت الساعة الثالثة صباحاً ، والصمت ذاته يسود ، عندما سمعنا المدير ، المحجوب في الظل ، يرفع صوته نحو المفتش :

« لكريفان لم يهبط ، الليلة ، في الدار البيضاء .

ــ آ ! أجاب المفتش .. آ ؟ »

وكمن انتزع من سياق حلمه ، بذل جهداً ليستيقظ ، ليظهر حميّة ، ثم اضاف :

« آ ! حقاً ؟ لم يتمكّن من المرور ؟ وهل رجع ؟ »

جاء الجواب بسيطاً من قعر السيارة : « كلا »

انتظرنا التتمة على غير طائل . وبقدر ما كانت الدقائق تنقضي كان يتضح ان هذه « الكلا » لن تتبعها اية كلمة ، ان هذه « الكلا » كانت مبرمة ، أن لكريفان ليس فقط لم يهبط في الدار البيضاء ، بل انه سوف لن يهبط ابداً في اي مكان .

★★★

هكذا استسلمت بدوري ، ذلك الصباح ، فجر اولى رحلاتي ، الى طقوس المهنة المقدسة ، يتولاني شعور بأن الثقة تنقصني لكي انظر من خلال الزجاج ، الى الطريق الملتمع حيث تنعكس المصابيح . كنا نرى عليها ، فوق برك الماء ، سعفات ريح كبيرة تركض . وكنت افكّر : « في رحلتي الاولى ... حقاً ... حظي قليل . » رفعت عيني الى المفتش : « هذا طقس رديء ؟ » فألقى المفتش صوب الزجاج نظرة بالية ثم دمدم : « هذا لا يدل على شيء »

ورحت اتساءل ما هي دلالة رداءة الطقس . كان « غيّوميه »

قد محى ، في المساء بابتسامة واحدة ، جميع نذائر الشؤم التي كان يرهقنا بها القدامى ، ولكنها كانت تعود الى ذاكرتي : « من لا يعرف الخط ، حصاة حصاة ، فاني أرثي له اذا صادف عاصفة ثلجية ••• آ ! نعم ، اني لأرثي له ••• »

كان عليهم ولا بدّ انقاذ سمعتهم ، كانوا يهزون الرأس ، يحدّجوننا بشفقة مزعجة ، كما لو كانوا يرثون فينا سذاجة بريئة •

وفي الواقع ، لكم من بيننا كانت هذه المركبة بمثابة الملجأ الاخير ؟ ستون ، ثمانون ؟ اقتادهم السائق السكوت نفسه ، ذات صباح ماطر • كنت انظر حولي : نقاط مضيئة تلتمع في الظل ، سجائر تميّز التأملات • تأملات متواضعة لمستخدمين هرموا • لكم من بيننا ألفّ هؤلاء الرفقاق الموكب الاخير ؟

كنت أباغت كذلك المسارّات المهموسة • كانت تدور حول المرض ، المال ، المشاكل المنزلية • كانت تبيّن جدران السجن الكالح الذي حبس فيه هؤلاء الرجال انفسهم • وفجأة ، برز لي وجه القدر •

ايها الموظف القديم ، يا رفيقي الحاضر هنا ، ما من احد

حملك على الفرار ولست مسؤولا عن ذلك • لقد بنيت سلامك بكثرة ما سددت بالملاط ، كما تفعل السرف ، جميع منافذ النور • لقد تقوقعت في طمأنينتك البورجوازية ، في رتاباتك ، في طقوس حياتك الريفية الخانقة ، رفعت هذا السور المتّضع في وجه الرياح والمدّ والنجوم • انك لا تريد الانهماك بالمعضلات الكبرى ، كلّفت نفسك ما يكفيها عناء لكي تنسى وضعك كانسان • لم تعد ساكن كوكب تائه ، ولا انت تطرح على نفسك اسئلة بلا جواب • انك بورجوازي صغير من تولوز • ما من احد اخذك من كتفيك قبل فوات الاوان • والآن ، فقد جفّ الطين الذي جبلت منه ، وتصلّب ، ولم يعد احد ليستطيع ان يوقظ فيك الموسيقيّ الغافي، ولا الشاعر ، ولا الفلكيّ الذي ربما أقام فيك قبلا •

لم اعد اتذمّر من زخّات المطر • فسحر المهنة يفتح لي عالماً سأجابه فيه ، قبل ساعتين ، التنانين السود ، والقلل المكللة بشعر البروق الزرق ، حيث اروح ، وقد هبط الليل ، وتحرّرت ، أقرأ طريقي في الكواكب •



هكذا كانت تجري عمادتنا المهنية ، وبدأنا نسافر .

كانت هذه الاسفار ، في غالب الاحيان ، تجري دونما حادث يذكر . فكنا نهبط بسلام ، مثل غواصين محترفين ، في أعماق ميداننا . ولقد استكشف اليوم جيداً . فالطيار والميكانيكي وموظف اللاسلكي عادوا لا يحاولون مغامرة ، بل ينغلقون في مختبر . انهم يصدعون لتلاعبات ابر ، وليس لتوالي المناظر الطبيعية . فالجبال ، في الخارج ، غائصة في العتمات ، ولكنها لم تعد جبالا . انها قوى غير منظورة ـــ يجب ان نحسب مدى اقترابنا منها . فموظف اللاسلكي ، تحت المصباح ، يدوّن بهدوء ، ارقاما . الميكانيكي ينقّط الخريطة ، والقبطان يصحّح طريقه كلما انداحت الجبال ، كلما انبسطت القمم التي يرغب في اجتيازها الى اليسار امامه ، في صمت الاعدادات العسكرية وكتمانها .

واما اللاسلكيون الساهرون على الارض ، فانهم يدوّنون ، بهدوء ، على دفاترهم ، وفي اللحظة عينها ، ذات ما يمليه رفيقهم : « نصف الليل والدقيقة الاربعون . الطريق على ٢٣٠ . كل شيء كما يرام في الطيارة » .

هكذا يسافر اليوم الملاحون . لا يشعرون بانهم يتحركون . انهم بعيدون جداً ، كما الليل عرض البحر ، عن كل ارم . لكن المحركات تملأ تلك الحجرة المضاءة بارتعاش يغيِّر ماهيتها . لكن الساعة تدور . لكن ثمة كيميا بكاملها غير مرئية تتواصل في هذه الأطر ، في هذه المصابيح ـ اللاسلكية ، في هذه الابر . من ثانية الى ثانية تعدّ المعجزة هذه البوادر السرية ، هذه الكلمات المكتومة ، هذا الانتباه . وعندما تحين الساعة ، يستطيع القبطان ، بكل يقين ، ان يلصق جبهته بالزجاج . لقد ولد الذهب من العدم : انه يشعّ في اضواء المحطة .

ومع هذا ، فقد عرفنا جميعاً الأسفار حين استشعرنا ، فجأة ، على ضوء وجهة نظر خاصة ، وعلى مسيرة ساعتين من المحطة ، بابتعادنا كما لم نكن لنستشعر به في الهند ، وحيث لم نكن نأمل الاياب .

هكذا ، لما اجتاز مرموز للمرة الاولى الاطلسي الجنوبي على متن جومائية ، اشرف على اقليم بو ـ تو ـ نوار ، فرأى حياله ، أذناب اعصار تتجمّع ، من دقيقة الى دقيقة ، مثلما نرى

جداراً يشيّد ، ثم يسدل الليل ستوره على هذه الاعدادات فيطمس معالمها • ولمّا تغلغل ، بعد ساعة ، تحت الغيوم ، أطلّ على مملكة خيالية •

كانت خراطيم بحرية تنتصب هناك متراكمة وجامدة ، في الظاهر ، مثل عمد معبد سوداء حملت ، وقد تنفخت في اطرافها ، قبّة العاصفة الجهماء والخفيضة ، ولكنّ شراريب نور كانت تتساقط من خلال مزق القبّة ، والبدر يسطع ، بين العمد ، على بلاط البحر البارد • وتابع مرموز طريقه عبر هذه الاطلال ، منحرفاً من قمر نور الى آخر ، مداوراً هذه العمد العملاقة حيث يزمجر ارتفاع البحر ، سائراً اربع ساعات ، طوال هذه المساقط القمرية ، صوب مخرج المعبد • وكان هذا المشهد ساحقاً لحدّ ان مرموز لاحظ ، بعد اجتيازه اقليم بو ــ تو ــ نوار ، انه لم يخف •

اذكر كذلك احدى تلك الساعات التي يجتاز فيها المرء تخوم العالم الواقعي • كانت التنبوءات الجوية التي ارسلتها مراكز اللاسلكي من المحطات الصحراوية خاطئة طوال تلك الليلة ، فجعلتنا نخطىء خطأ جسيماً ، انا واللاسلكي « نيري » • ولما لمحت الماء يلتمع من قعر ثلمة في الضباب ، جنحت فجأة باتجاه الشاطىء ،

ولم نكن ندري منذ متى نحن نغذّ باتجاه عرض البحر .

لم نعد واثقين من بلوغ الشاطىء ، فقد تنقصنا الوقود . وكان علينا فيما لو بلغناه ان نعثر على المحطة . لقد كانت ساعة غروب القمر . ولما كنا بدون تعليمات اتجاه ، مصابين بالصمم ، فقد رحنا نفقد الرؤية شيئاً فشيئاً . القمر انهى انطفاءه مثل جمرة شاحبة ، في ضباب يشبه اسواراً من الثلج . كانت السماء فوق رؤوسنا تتدثّر ، بدورها ، بالغيوم ، ورحنا نطير بعد الآن بين هذه الغيوم ، وذاك الضباب ، في عالم مفرغ من كل نور وجوهر .

المحطات التي كانت ترد علينا ، تخلّت عن ارشادنا عن مصيرنا . « لا ارشادات ... » ، لان صوتنا كان يبلغها من كل صوب ومن لا صوب .

كنا قد استسلمنا الى اليأس ، عندما تكشّفت لنا بغتة نقطة برّاقة عند الافق ، الى اليسار ، فأحسست بفرح صاخب ، بينما انحنى نيري صوبي ، فسمعته يغني ! لا يمكن ان يكون ذلك غير المحطة ، لا يمكن ان يكون سوى منارتها ، لان الصحراء في الليل تنطفىء كلها وتستحيل ارضاً مواتاً .

بيد ان النور التمع قليلا ، ثم انطفأ • وكنا قد اتجهنا على هدى نجمة ، بدت عند افولها ، لبضع دقائق ، على الافق ، بين طبقة الضباب والغيوم •

عندئذ رأينا انواراً اخرى تتبدّى ورحنا ، يدفعنا رجاء اصمّ ، نيمّم كلا منها بدورها • وبما ان الضوء استمر ، حاولنا التجربة الحيوية : « امامنا ضوء ، يأمر نيري محطة سيسنيروس : أطفئوا منارتكم وأشعلوها ثلاث مرات • » فتطفىء سيسنيروس وتشعل منائرها ، ولكنّ الضوء الصلب ، الذي كنا نراقبه ، لم يطرف له جفن وكأنه نجمة ازلية •

ورغم الوقود النافدة ، كنا لا ننفك نعضّ الشصوص الذهبية ، فاذا هي ، كل مرة ، أضواء منارة حقيقية ، اذا هي كل مرة ، المحطة والحياة ، وكان علينا ان نستبدل نجما •

مذ ذاك ، احسسنا بانفسنا ضائعين في المتاه الكوكبي ، بين مائة نجمة لا وصول اليها ، سعياً وراء النجمة الوحيدة الحقيقية ، نجمتنا ، وراء تلك التي ، وحدها ، تحتوي مناظرنا الأليفة ، منازلنا الصديقة ، وحناننا •

وراء تلك التي ، وخدها ، تحتوي ••• سأقول لكم الصورة التي طالعتني وقد تبدو لكم تافهة • ولكننا ، في صميم الخطر ، تحتفظ بوساوس رجل • كنت ظمآناً ، وكنت جائعاً ، فاذا تسنَّى لنا وعثرنا على سيسنيروس ، فسنتابع الرحلة ، بعد ان تتزوَّد بالوقود ، ونهبط في الدار البيضاء ، في طراءة الصباح • انتهى العمل ! ونهبط المدينة ، انا ونيري • نجد عند الفجر حانات صغيرة فتحت ابوابها ••• وسنجلس ، انا ونيري ، الى طاولة ، في غمرة الاطمئنان ، ونضحك من الليلة الماضية ، امام الكعك الساخن والقهوة بالحليب • وسنتلقى ، انا ونيري ، هذه الهدية الصباحية من الحياة • هكذا القروية العجوز لا تتصل بالهها الا عبر صورة مرسومة ، قلادة ساذجة ، مسبحة : يجب ان يكلمونا لغة بسيطة لكي نفهمهم • كان فرح الحياة يتجمَّع بالنسبة اليَّ في تلك الجرعة الاولى المطيِّبة ، والمحرقة ، في ذلك المزيج من الحليب والقهوة والقمح الذي به تتَّصل بالمراعي الهادئة ، بالمزروعات الغريبة والحصاد ، الذي به تتَّصل بالارض قاطبة • بين هذه النجوم ، لم تكن هناك الاَّ واحدة تؤلف ، لتكون في مستوانا ، هذه الطاسة العاطرة في وجبة الفجر •

بيد ان مسافات شاسعة كانت تتراكم بين سفينتنا وتلك الارض الآهلة • جميع ثروات العالم كانت مستقرة في حبّة غبار أضيعت بين النيِّرات • وكان الفلكي « نيري » ، في سعيه للتعرّف اليها ، يتوسّل النجوم •

★★★

واذ بقبضته تدفع ، فجأة ، كتفي • على الورقة التي اعلنتها لي تلك الدفعة ، قرأت : « كل شيء على ما يرام ، اني اتلقى برقية رائعة ••• » وانتظرت ، واجف القلب ، ان ينتهي من تدوينه الخمس او الست كلمات التي ستنقذنا • اخيرا تلقيتها ، هبة السماء تلك •

كانت مؤرّخة من الدار البيضاء التي برحناها مساء الامس • ولما كانوا قد تأخروا في الارسال ، فقد ادركتنا البرقية لتوّها ، على بعد ألفي كيلومتر ، بين الغيوم والضباب ، وضاعت في البحر• كانت هذه البرقية صادرة عن ممثل الدولة في مطار الدار البيضاء ، وقرأت : « سيدي ده سانت اكزوبري ، أراني مضطراً الى طلب معاقبتك في باريس • لقد جنحت قريباً جداً من العنابر عند قيامك

من الدار البيضاء ••• » • صحيح انني كنت قد جنحت قريباً جداً من العنابر • وصحيح ايضاً ان هذا الرجل يقوم بمهنته عندما يغضب، ولكنت تقبّلت هذا التوبيخ باتضاع في احد مكاتب المطار • ولكنه يدركنا هنا ، حيث لم يكن له ان يفعل • كان يدوّي بين هذه النجوم النادرة ، هذا السرير من الضباب ، هذه النكهة المنذرة للبحر •

كنا نمسك بايدينا مصائرنا ، مصير البريد ومصير سفينتنا . كنا نتكبّد مشقة كبيرة لنحكم كي نحيا ، بينما ذلك الرجل يشفي ضغينته التافهة منا • بيد انني ونيري ، بدل ان نستاء ، شعرنا بابتهاج عظيم مباغت • هنا ، كنا نحن الاسياد ، وقد جعلنا موظف المطار نكتشف ذلك • اما لاحظ اذن هذا العريف من أكمامنا اننا غدونا ضباطاً ؟ كان يزعجنا في حلمنا ، فيما كنا نجتاز بمهابة المائة خطوة بين الدب الاكبر وبرج القوس ، فيما القضية الوحيدة التي هي في مستوانا ، والتي كان بامكانها ان تشغلنا ، كانت خيانة القمر تلك •••

الواجب البديهي ، واجب الكوكب الوحيد حيث برز ذلك الرجل ، كان ان يمدّنا بارقام مضبوطة من اجل حساباتنا بين

الكواكب . الاّ ان ارقامه كانت خاطئة . فيما خلا ذلك ، فليس على الكوكب ، موقتاً ، الاّ ان يلزم الصمت . وكتب الي نيري : « بدل ان يتلهوا بالسخافات ، يجدر بهم ان يقتادونا الى ناحية ما ... »

ان كلمة « هم » كانت تختصر ، عنده ، جميع شعوب الكرة ببرلماناتهم ، بمجالس شيوخهم ، باساطيلهم ، بجيوشهم واباطرتهم. وفيما كنا نعيد قراءة هذه البرقية الواردة من اخرق يزعم ان له شأناً معنا ، جنحنا صوب عطارد .

انقذتنا أغرب الصدف : اذ حانت ساعة ضحّيت فيها بالامل من بلوغ سيسنيروس وجنحت عمودياً باتجاه الشاطىء ، فقررت لزوم هذا الاتجاه حتى نفاد الوقود . كنت هكذا احتفظ لنفسي ببعض امل بالنجاة من البحر . ولكن منائري الخادعة كانت قد اقتادتني ، ويا للاسف ، الى حيث يعلم الله وحده أين . والمؤسف ايضاً ان الضباب السميك الذي سنرغم على الغوص فيه ، في احسن الحالات وسط الليل ، كان يترك لنا نصيباً ضئيلا في مداناة الارض دون كارثة . على انه لم يكن لي ان اختار .

كان الوضع من الوضوح بحيث اني رفعت كتفي باكتئاب عندما دفع الي ّ نيري برقية لو بلغتنا قبل ساعة لأنقذتنا : « قررت سيسنيروس ارشادنا • سيسنيروس تشير : « اتجاه مائتان وستة عشر مريب ••• »

لم تعد سيسنيروس غائصة في العتمات • بدت ههنا ، ملموسة ، الى يسارنا • اجل ، ولكن على اية مسافة ؟ دار بيني وبين نيري حديث قصير • لقد فات الاوان • كنا متفقين • بالسعي الى سيسنيروس ، قد نزيد الخطر بان نخطىء الشاطىء • وأجاب نيري : « بسبب ساعة وقود نبقي الاتجاه على الثلاثة والتسعين »•

أخذت المحطات ، مع هذا ، تستفيق ، واحدة واحدة ، فكانت تمتزج في حوارنا اصوات اغادير والدار البيضاء ودكار • كانت مراكز الراديو ، في كل من هذه المدن ، قد أخطرت المطارات • ورؤساء المطارات بدورهم اخطروا الرفاق • واذا بهم ، رويداً رويداً ، يلتفتون حولنا كما حول سرير مريض • دفء سدى ، ولكنه مع ذلك دفء • نصائح عقيمة ، لكنها عارمة الحنان •

وبغتة برزت تولوز ، تولوز رأس الخط ، الضائعة هنالك

على اربعة آلاف كيلومتر • تولوز استقرت دفعة واحدة بيننا دون مقدمة : « الطيارة التي تقودونها أليست هي الـ « ف » ••• (نسيت الرقم) » ـ « نعم » ـ « اذن لديكم بعد وقود لساعتين • خزان هذه الطيارة ليس من الطراز العادي ، اتجهوا صوب سيسنيروس • »

★★★

وهكذا تحوّل الضرورات التي تفرضها المهنة العالم وتغنيه • وهي ليست بحاجة الى ليلة كهذه كي تجعل طيّار الخطّ يكتشف معنى جديداً للمشاهد العتيقة • المنظر الرتيب ، الذي يتعب المسافر ، بات غيره لفريق الملاحين • تلك الركام العائمة التي تسدّ الافق لا تعود زينة بالنسبة اليه : انها تهمّ عضلاته وتطرح عليه مشكلات • فهو منذ الآن يتحسّب لها ، يقيسها ، لغة حقيقية تربطه بها • هوذا خرشوم ما يزال بعيداً : اي وجه سيبدي ؟ انه ، في ضوء القمر ، سيكون الصوّة الملائمة • واما اذا كان الطيار يطير على غير هدى ، يقوّم سيره بصعوبة ويرتاب في موضعه ، فان الخرشوم يستحيل الى متفجرة تملأ بنذيرها الليل كله ، مثلما

ان لغماً واحداً غائصاً ، يسير على رسل التيّارات ، يفسد البحر كلّه .

هكذا تتنوّع المحيطات أيضاً . العاصفة تبقى ، للمسافرين العاديين ، غير منظورة : لأن الأمواج اذا نظر اليها من علٍ لا تبرز نتوءها ، وتبدو صرر الزبد جامدة . وحدها تتراكم سعف كبيرة بيضاء ، تغشّيها عروق ورسوم قدّت من احد انواع الجليد . بيد ان فريق الملاحين يقدّر ان كل رسوّ هنا محظور . ان هذه السعف هي ، بالنسبة اليه ، شبيهة بزهور كبيرة سامّة .

وحتى اذا كانت الرحلة سعيدة ، فان القبطان الذي يطير في مكان ما ، على قسم من الخط ، لا يشاهد مجرد منظر بسيط .

هذه الالوان للارض والسماء ، تلك الآثار للريح على البحر ، هذه الغيوم المذهّبة في الغسق ، انه لا يعجب بها ، وانما يتأملها : ومثل الفلاح الذي يتفقّد حقله متبيناً ، في الف امارة ، مسير الربيع ، خطر الصقيع ، قدوم المطر ، فان القبطان المحترف ، هو ايضاً ، يكتشف علامات الثلج ، علامات الضباب ، علامات ليلة سعيدة . ان الآلة التي كانت لاول وهلة تبدو وكأنها تنحّيه

عن المعضلات الطبيعية الكبرى ، تخضعه بأشد صرامة لتلك المعضلات • ووحده وسط المحكمة الرحبة التي تكوّنها له سماء عاصفة ، يروح ذلك القبطان ينازع ، في بريده ، ارباب العناصر الثلاثة ، الجبل والبحر والزوبعة •



الفصل الثاني

الرفاق

بضعة رفاق ، منهم مرموز ، انشأوا الخط الفرنسي بين الدار البيضاء ودكار ، عبر الصحراء العاصية . ولما كانت محركات ذلك الزمن سريعة العطب ، فقد اوقع عطل مرموز في ايدي المغاربة ، فترددوا في ذبحه ، احتفظوا به سجيناً طوال اسبوعين ، ثم اطلقوه فأستأنف طيرانه فوق الاراضي عينها .

وعندما فتح خطّ اميركا ، كلّف مرموز ، وكان دائماً في الطليعة ، بدراسة الجزء الواقع بين بونس ايروس وسانتياغو ، وباقامة جسر فوق جبال الآند ، بعد الجسر الذي اقيم فوق

الصحراء • عهدوا اليه بطيارة أقصى ارتفاعها خمسة آلاف ومائتا متر • بينما قمم « الآند » ترتفع سبعة آلاف متر • وأقلع مرموز للبحث عن منافذ • بعد الرمل ، جابه الجبل ، تلك الشعاف التي تطلق في الهواء شالها الثلجي ، ذلك الشحوب يعرو الاشياء قبل الزوبعة ، تلك الامواج القاسية التي اذا تلقّاها الطيار بين اسوارين ارغمته على نوع من الصراع بالسكين • لقد انخرط مرموز في هذه المعارك دون ان يعرف شيئاً عن الخصم ، دون ان يعرف هل يخرج المرء حياً من مثل تلك الغمرات • كان مرموز « يجرّب » للآخرين •

ذات يوم ، ولكثرة ما « جرّب » ، ألفى نفسه سجين « الآند » •

فبعد أن سقط من ارتفاع اربعة آلاف متر ، فوق نقفة ذات جدران عمودية ، ظل طوال يومين يسعى ، ورفيقه الميكانيكي ، للافلات • لقد كانا اسيرين •

آنذاك قامرا بآخر حظ لهما ، فأطلقا للطيارة العنان صوب الفراغ ، توثّبا توثّباً قاسياً فوق الارض المنتأة ، حتى الهاوية ،

حيث هبطا • الا ّ ان الطيارة اكتسبت اخيراً ، في هبوطها ، ما يكفي من السرعة لكي تخضع من جديد للقيادة • فوجهها مرموز نحو ذروة ما انفك ان لمسها وتفجَّر الماء من جميع الثقيِّبات التي احدثها الصقيع خلال الليل • وفيما الطيارة تتعطل بعد سبع دقائق من الطيران ، اذا بمرموز يكتشف السهل الشيلي ، تحته ، وكأنه ارض ميعاد • وعاود في الغد •

لمَّا أكتشفت جبال « الآند » جيداً ، وتمَّ ضبط تقنية اجتيازها، عهد مرموز بهذا الجزء من الخط الى رفيقه « غيّومه »، ومضى يستكشف الليل •

لم تكن انارة محطاتنا قد تمَّت بعد ، فكانوا ، في الليل المظلم، يصفّون ازاء مرموز ضوءاً شحيحاً من ثلاثة قناديل على النفط •

وتد ّبر أمره وشقَّ الطريق •

ولما تم ّ ترويض الليل جر ّب مرموز المحيط • وهكذا نقل البريد ، منذ ١٩٣١ ، وللمرة الاولى ، في أربعة ايام ، من تولوز الى بونس ايروس • الا ّ ان الزيت نفد عند العودة ، وسط الاطلسي الجنوبي ، فوق بحر هائج ، فانقذته سفينة مع بريده

وملاحيه .

وهكذا عبّد مرموز سبل الرمل والجبل والليل والبحر .

وما كان رجوعه يوماً الا تمهيداً لرحيل جديد .

اخيراً ، بعد اثنتي عشرة سنة من العمل ، وفيما كان يطير مرة اخرى فوق الاطلسي الجنوبي ، اخبر ببرقية مقتضبة انه قطع المحرّك الخلفيّ الأيمن عن الطيارة . وكان صمت طويل .

لم يبد النبأ مريباً قط ، ومع ذلك ، بعد عشر دقائق صمت ، بدأت جميع مراكز اللاسلكي ، على الخط ، من باريس حتى بونس ايروس، سهرها الممضّ . لانه ان لم يكن في الحياة اليومية من معنى لعشر دقائق تأخير ، فان هذه الفترة القصيرة تكتسب في الطيران البريدي مغزى بليغاً . فلا بدّ ان يكون في صميم ذلك، الزمن الميت حدث ما زال مجهولا . تافهاً كام أم شقيّاً ، فان ما حدث قد حدث . لقد اصدر القدر حكمه ، وهو حكم مبرم . ان يداً حديدية اقتادت فريقاً من الملاحين الى الابحار دونما خطر او الى التحطّم . لكنّ الحكم لم يبلّغ بعد اولئك الذين ينتظرون .

من منا لم يعرف هذه الآمال التي تهي شيئاً فشيئاً ، وهذا الصمت الذي يتعاظم ، ويستبدّ من دقيقة الى دقيقة كمرض عضال ؟ لقد كنّا نرتجي ، واذا بالساعات قد كرت وفات الزمن رويداً رويداً • كان لا بدّ لنا ان ندرك اخيراً ان رفاقنا لن يعودوا ابداً ، انهم يرقدون في ذلك المحيط الجنوبي الذي طالما حرثوا سماءه •

لقد اعتصم مرموز ، في النهاية ، خلف صنيعه ، شأنه شأن الزارع الذي يرقد في حقله وقد اطمأن الى ربط جرزته •

★★★

لقد اعتدنا ، في الواقع ، ان ننتظر اللقاءات طويلا • لان رفاق الخط مشتتون في العالم ، من باريس الى ساتنياغو الشيلي ، منعزلون قليلا كالحراس الذين لا يتخاطبون قط • لا بدّ من صدفة الاسفار لتجمع ، هنا وثمّة ، شمل اعضاء العائلة المهنية الكبرى • وحول طاولة المساء ، في الدار البيضاء ، في دكار ، في بونس ايروس ، يستأنفون ، بعد سنين صمت ، تلك المسامرات التي انقطعت ويعيدون وصل ما انفرط بينهم بالذكريات العتاق •

ومن ثم يستأنفون ترحالهم • واذا بالارض هكذا مقفرة وغنية في آن معاً • غنية بتلك الحدائق الخفيَّة ، المخبَّأة ، الصعبة البلوغ ، والتي قد تقودنا المهنة اليها يوماً • الرفاق ، قد تبعدنا الحياة عنهم ، تحول دون تفكيرنا بهم كثيرا ، غير انهم في مكان ما ، لا نعرفه بالضبط ، صامتون ، منسيون ، انما على العهد باقون • فاذا التقينا هز وا اكتافنا في غمرة من الفرح ، اكيد ان من عادتنا الانتظار ••• لكننا تتبيَّن شيئاً فشيئاً ان ضحكة ذلك الرفيق المشرقة قد لا نعود نسمعها بعد اليوم ، تتبين ان تلك الحديقة قد منعت علينا الى الابد • عندئذ يبدأ حدادنا الحقيقي وهو ليس حداداً ممزّقاً بل فيه ظل مرارة •

لا شيء ، ابدا ، في الواقع ، يحلّ محلّ الرفيق المفقود • لا نستطيع ان نخلق قدامى الرفاق • لا شيء يوازي كنز تلك الذكريات المشتركة ، وتلك الساعات العسيرة التي عشناها معاً ، بما فيها من الخلافات ، والمصالحات ، ونزوات القلب • مثل تلك الصداقات لا تبنى من جديد • وهل نرتجي ، لو غرسنا سنديانة ، ان نستظل أوراقها بعد أمد قصير ؟•••

هكذا تمضي الحياة • لقد اثرينا باديء بدء ، زرعنا خلال

أعوام ، ولكن تأتي الاعوام ويعفّي الزمن فيها على هذا العمل ، ويجتثّ الاشجار ، فيسحب الرفاق ، واحداً واحدا ، ظلهم عنا ، وبحدادنا يمتزج الاسف الخفي على اننا نشيخ •

هذا هو الدرس الذي لقننا اياه مرموز وغيره • لعل عظمة مهنة من المهن هي ، قبل كل شيء ، في التوحيد بين البشر : ليس ثمة الا ترف واحد حقيقي ، هو ترف العلائق البشرية !

اننا اذ نشتغل من اجل الخيرات المادية وحدها نشيّد سجننا بأنفسنا • نسجن انفسنا منعزلين ، مع عملتنا ، وهي من رماد ، لا توفّر اي شيء جدير بأن نحيا من اجله •

لو بحثت في ذكرياتي عن اولئك الذين خلّفوا لي نكهة باقية ، لو جردت الساعات التي كان لها وزن ، لوجدت ، بكل تأكيد ، تلك التي لم تدرّ عليّ كسباً •

لا تشرى صداقة رجل كمرموز ، صداقة رفيق شدّته الينا الشدائد التي عانيناها معاً الى الأبد •

أنّى للمال أن يشتري تلك الليلة من الطيران بنجومها المائة ألف ، وصفائها ، تلك السيادة لبضع ساعات !

تلك السمات الجديدة للعالم ، بعد المرحلة العسيرة ، تلك الاشجار ، تلك الزهور ، اولئك النسوة ، تلك البسمات الحديثة العهد بألوان الحياة ، التي أعيدت الينا لتوّها عند الفجر ، تلك الجوقة من الاشياء الصغيرة التي تكافئنا ، انها لا تشرى بمال .

ولا تلك الليلة التي عشناها في المناطق العاصية والتي يعاودني ذكرها .

كنا ملاحي ثلاث طيارات من الايروبوستال .

سقطنا عند جنوح النهار على شاطىء ريو ده أورو . كان رفيقي « ريغيل » قد حطّ أولا ، على اثر عطل في ذراع الدافعة . فتبعه رفيق آخر ، « بورغا » ، وهبط بدوره ليأخذ فريق الملاحين ، فاذا بعطل بسيط يبقيه أيضا على الارض . اخيراً ، هبطت، وعندما وصلت خيّم الليل . قرّرنا انقاذ طيارة « بورغا » وانتظار النهار كي نتمكن من اصلاحها .

قبل عام ، كان رفيقانا ، « غورب » و « ايرابل » ، اللذان تعطّلا هنا ، بالضبط ، قد ذبحهما الخارجون على السلطة ، وكنا نعرف ان قبيلة غازية مؤلفة من ثلاثمائة بندقية تخيّم ، اليوم

أيضاً ، في ناحية ما من بوجادور • ولعل هبوطنا على دفعات ثلاث ، وكان يمكن رؤيته عن بعد ، قد لفت انظارهم الينا ، وهكذا بدأنا سهرة كان يمكن ان تكون الاخيرة •

استقرّينا اذن لتمضية الليل • ولمّا كنّا قد أنزلنا من مستودعات الامتعة خمسة او ستة صناديق بضائع ، فقد أفرغناها ووضعناها بشكل دائرة وأوقدنا ، داخل كل منها ، كما في تجويف مرقب ، شمعة هزيلة تصارع الريح • وهكذا ، في قلب الصحراء ، على القشرة العارية من الارض ، في عزلة كتلك التي عرفتها السنون الاولى للعالم ، بنينا قرية بشرية •

احتشدنا لتمضية الليل فوق تلك الساحة الكبيرة من قريتنا ، فوق تلك القطعة من الرمل حيث كانت صناديقنا تسكب ضوءاً شحيحاً راجفاً ، وانتظرنا • كنا ننتظر الفجر الذي سينقذنا ، أو البرابرة • ولست ادري ما كان يضفي على تلك الليلة نكهتها الميلادية • كنّا نسرد على بعضنا الذكريات ، تتندّر ونغني •

رحنا تتذوق تلك الحرارة الخفيفة نفسها كما في غمرة عيد أعد خير اعداد • ومع ذلك ، فقد كنّا فقراء لا حد لفقرنا • هواء ،

رمل ، نجوم • نمط عيش قاس حتى للزاهدين من الرهبان •
ولكن ، فوق ذلك السماط السيّء الاضاءة ، كان ستة او سبعة
رجال فقدوا كل شيء في العالم ، الا ذكرياتهم ، يتقاسمون ثروات
غير منظورة •

كنّا قد عدنا فالتقينا أخيرا • انّا نسير طويلا جنباً الى
جنب ، معتصمين كل في صمته الخاص ، او تتبادل كلمات لا تنقل
شيئاً • ولكن هي ذي ساعة الخطر • واذا بنا يعضد أحدنا الآخر •
نكتشف أننا ننتمي الى الاسرة نفسها • نسترحب باكتشاف
وجدانات اخرى • ننظر الى انفسنا بابتسامة عريضة • اننا لأشبه
بذلك السجين المعتوق الذي يفتتن بسعة البحر •

— ٢ —

غيّومه ، سأقول بضع كلمات فيك ، ولكني لن أثقل عليك
ملحّاً بغلاظة على شجاعتك او على قيمتك المهنية • شيء آخر هو
ما أود وصفه بسردي أجمل مغامراتك •

ثمة مزيّة لا اسم لها • لعلها « الوقار » ، ولكن الكلمة لا

ترضي • لأن تلك المزيّة يمكن ان يصطحبها المرح الأكثر ابتساماً • انها المزيّة ذاتها التي للنجّار الذي يقف وقفة الندّ بازاء قطعة الخشب ، يتحسّسها ، يقيسها ، وبدلاً من التعرض لها باستخفاف يحشد بصددها جميع مؤهلاته •

قرأت ، فيما مضى ، يا غيّومه ، قصة يمجّدون فيها مغامرتك ، ولديّ حساب قديم أريد تصفيته وتلك الصورة غير الصادقة • كنا نراك فيها قاذفاً بفكاهات « متبهور » ، ـــ كما لو كانت الشجاعة تقوم بالتدنّي الى تهكمات تلميذ ـــ ، في غمرة أسوأ الاخطار وفي ساعة الموت • لم نكن نعرفك ، يا غيّومه • انت لست تشعر بالحاجة الى الاستهزاء من خصومك قبل مجابهتهم • فانك ، حيال زوبعة شرسة ، تحكم : « هذي زوبعة شرسة » فتقلبها وتقيسها •

اني احمل اليك هنا ، يا غيّومه ، شهادة ذكرياتي •

كنت قد فقدت منذ خمسين ساعة ، في الشتاء ، خلال اجتيازك جبال الآند • ولما كنت قادماً من عقر باتاغونيا ، فقد لحقت بالطيّار « ديلي » في مندوزا ورحنا ، كلانا ، نفتش ، في

الطيارة ، طوال خمسة ايام ، تلك الناحية من الجبال دون ان نعثر على شيء . لم تكن طيّارتانا لتكفيان قط . كان يخيل الينا ان مائة سرب تمخر الجوّ طوال مائة من السنين ، ولا تنتهي من استكشاف تلك السلسلة الجبلية الهائلة التي ترتفع شعافها حتى سبعة آلاف متر . كنا قد فقدنا كلّ امل . المهرّبون أنفسهم ، وهم ، هناك ، لصوص يقترفون جريمة لقاء خمسة فرنكات ، كانوا يرفضون ان يغامروا معنا ، على سفوح الجبل ، بقوافل نجدة ، وكانوا يقولون لنا : « اننا نجازف فيها بحياتنا » . « جبال الآند ، في الشتاء ، لا تردّ الرجال قط » . وعندما كان « ديلي » ، أو أنا ، نهبط في سانتياغو ، كان الضباط الشيليون ينصحوننا ، هم أيضا ، بوقف جولاتنا الاستكشافية . « انه الشتاء . وهبْ ان رفيقكما لم تقتله السقطة ، فهو لم يتغلّب على الليل . الليل ، هنالك فوق ، اذا هو مرّ على انسان أحاله جليدا » . وعندما كنت أتسلل ، من جديد ، بين جدران الآند وركائزها الشامخة ، كان يخيل اليّ انني لست أبحث عنك ، وانما أسهر على جثمانك ، في صمت ، في كاتدرائية من ثلج .

أخيراً ، خلال اليوم السابع ، بينما كنت اتناول الغذاء ، بين

جولتين ، في احد مطاعم مندوزا ، اذا برجل دفع الباب وصاح : أو ! أمر يسير :

ــ غيّومه ... حيّاً !

وتعانق جميع الغرباء الذين كانوا هنالك .

بعد عشر دقائق ، أقلعت ، وعلى متن طيارتي ميكانيكيان ، لوفيفر وآبري . وبعد اربعين دقيقة ، كنت قد هبطت طوال احدى الطرق وقد عرفت ، لا أدري لأية علامة ، السيارة التي تقلك حيث لا ادري ، جهة سان رافائيل . كان لقاء جميلا . وكنا نبكي جميعاً ونسحقك بين اذرعنا حيّا ، مبعوثاً ، مجترحاً معجزتك بنفسك . عند ذلك أفصحت ، وكانت اولى جملك المفهومة ، عن كبرياء انسان آسرة :

« ما فعلته ، أقسم لك ، لا يفعله اي حيوان » .

★★★

فيما بعد ، رويت لنا الحادثة .

عاصفة جرفت سماكة خمسة امتار من الثلج ، في ثماني

واربعين ساعة ، على المنحدر الشيلي من الآند ، فسدّت الفضاء كله ، وكان اميركيو « البان اير » قد عادوا على اعقابهم • غير انك اقلعت باحثاً عن مزق في السماء • ولقد اكتشفته قليلا الى الجنوب ، هذا الشرك ، وها انت الان ، على نحو ستة آلاف وخمسمائةمتر ، مهيمنا على الغيوم التي لا تسقّف الا على ارتفاع ستة آلاف متر ، والتي منها تنبثق الشعاف العالية وحدها ، تتجه صوب الارجنتين •

التيارات المنحدرة تولّد أحياناً في نفس الطيّار شعوراً غريباً بالضيق • المحرّك يدور كما يجب ، ولكننا نغوص • نلجم لانقاذ ارتفاعنا ، فتفقد الطيّارة من سرعتها وتغدو رخيّة : ونستمر نغوص • نسلس لها القياد ، خشية اذ ذاك أن نكون قد ألجمنا زيادة ، نرخي لانفسنا العنان فنمضي يمنة او يسرة كي نستند الى الشعف الملائم ، ذلك الذي يتلقّى الرياح كمنطلق ، ولكننا نغوص أيضا • انها السماء بجماعها تبدو وكأنها تسقط • نحس باننا اخذنا عند ذاك في نوع من الاصطدام الكوني • لم يعد ثمة مأوى • عبثاً نحاول ان نقفل راجعين لندرك ، وراءنا ، المناطق حيث كان الهواء يسندك ثبتاً وممتلأ كركيزة من الركائز • ولكن لم يعد ثمة

ركيزة • كل شيء يتفكك ، وننزلق في خراب كوني نحو غيمة تصعد برخاوة ، ترتفع اليك ، وتزدردك •

كنت تقول لنا : سبق واوشكت على الوقوع في الشرك ، ولكني ما كنت قد اقتنعت بعد • فنحن نلتقي تيارات منحدرة فوق الغيوم التي تبدو ثابتة ، لسبب بسيط هو انها على ذلك الارتفاع نفسه تعود فتتكون باستمرار • كل شيء شديد الغرابة في اعالي الجبل ••• » •

ويا لها من غيوم !•••

« حالما أخذت ، تركت القيادة وتمسكت بالمقعد كي لا أقذف الى الخارج • كانت الارتجاجات من الشدة بحيث راحت الاحزمة تجرّح كتفيّ او تكاد تتقطع • فضلا عن ان غشاوة الصقيع كانت قد افقدتني تماماً كل أفق آليّ فانحدرت كالقبّعة ، من ستة آلاف الى ثلاثة آلاف وخمسمائة •

« على ثلاثة آلاف وخمسمائة متر تبيّنت كتلة سوداء ، أفقية ، اتاحت لي تعديل الطيارة • كان ذلك مستنقعاً عرفته : لاغونا ديامنتي • لقد عرفته مستقراً في قعر قمع يرتفع أحد

جوانبه ، البركان ميبو ، الى ستة آلاف وتسعمائة متر • ومع اني كنت قد تخلّصت من الغيمة ، فقد كنت ما ازال أعشى البصر بسبب أعاصير ثلجية سميكة ولا استطيع التخلّي عن بحيرتي دون ان اصطدم باحد جوانب القمع • رحت ادور اذن حول البحيرة ، على ارتفاع ثلاثين متاراً ، الى ان انقطعت من الوقود • بعد ساعتين من الدوران هبطتّ وجنحت• ولما تخلّصت من الطيارة ، طرحتني العاصفة أرضاً • نهضت على قدمي ، فقلبتني ثانية • فاضطررت الى الزحف تحت هيكل الطيارة وحفر ملجأ في الثلج حيث لففت نفسي بالاكياس البريدية وانتظرت ، ثمانياً واربعين ساعة •

« بعد ذلك سكنت العاصفة فانطلقت أمشي • مشيت خمسة ايام واربع ليال » •

ولكن ماذا بقي منك ، يا غيومه ؟ صحيح اننا عدنا فوجدناك، انما مكلّساً ، انما متيبساً ، انما مستصغراً كعجوز ! في المساء نفسه ، نقلتك بالطيارة الى مندوزا حيث سالت عليك شراشف بيضاء سيلان بلسم • ولكنها لم تكن لتشفيك • كنت ضائقاً بذلك الجسد المشنّج الذي تديره وتديره دون ان تتوصل الى زحمه في السبات • لم يكن جسدك لينسى الصخور ولا الثلوج التي

وسمتك . كنت أراقب وجهك الاسود ، المتورم ، الذي يشبه ثمرة ناضجة أصيبت برضوض . كنت جدّ بشع ، وبائس ، بعد ان فقدت عادة استخدام أداتي عملك الجميلتين : لقد بقيت يداك مخدّرتين ، وحينما كنت تجلس على حافة السرير لتتنفس ، كانت رجلاك المتجمّدتان تتدليان كوزنين مائتين . ما كنت قد انهيت بعد حتى رحلتك . كنت ما تزال تلهث . وعندما كنت تستدير صوب الوسادة باحثاً عن السلام ، عندئذ كان موكب الصور الذي ما كنت لتستطيع امساكه ، الموكب الذي كان يتأفّف في المقاصير ، سرعان ما يتحرك تحت جمجمتك . ويستمر في عرضه . وكنت تستأنف عشرين مرة صراعك ضد اعداء يبعثون من رمادهم .

كنت أترعك بمغليٍّ الحشائش :

ـ اشرب ، يا صديقي !

ـ اكثر ما ادهشني ... أتعرف ...

مثل ملاكم منتصر ، لكنه يحمل آثار اللكّمات التي تلقاها ، كنت تعاود عيش مغامرتك الغريبة . وتتحرر منها على دفعات .

وكنت استشفك خلال حكايتك الليلية سائراً ، دون عكّاز ، دون حبال ، دون زاد ، تتسلق شعاباً تشمخ الى اربعة آلاف وخمسمائة متر ، او تتوقّل ألقافاً عمودية ، وقدماك وركبتاك ويداك تنزف في اربعين درجة من البرد . وتتقدّم ، مفرغاً شيئاً فشيئاً من قواك ، من عقلك ، بعناد النملة ، مرتدّاً على أعقابك لتداور العقبة ، ناهضاً غبّ السقطات او معاوداً تسلّق من المنحدرات ما لا يفضي الاّ الى الهاوية ، لا تمنح نفسك في النهاية اية راحة ، لانك اذ ذاك ما كنت لتنهض ثانية من سرير الثلج .

وفي الواقع ، عندما كنت تزلق ، كان عليك ان تنتصب بسرعة كي لا تتحول الى حجر . كان البرد يجمدك من ثانية الى ثانية ، وكان عليك ، وقد استرحت دقيقة بعد السقطة ، ان تحرّك عضلات مائتة كيما تنهض من جديد .

كنت تقاوم التجارب . « في الثلج ، كنت تقول لي ، يفقد المرء غريزة الحفاظ على الذات فقداناً تاماً . فبعد يومين ، ثلاثة ، اربعة من المسير، لا يعود المرء يرغب في سوى السبات . كنت أتمناه . ولكني كنت اقول لنفسي : « ان امرأتي ، اذا كانت تعتقد انني أحيا ، فهي تعتقد بأني أمشي . الرفاق يعتقدون انني

امشي • انهم يثقون بي جميعاً • وانني لقذر اذا لم أمش » •

وكنت تمشي وبرأس مدينتك تشقّ ، كل يوم اكثر قليلا ، منفرج حذائك كي يستطيع احتواء قدميك اللتين تجلّدان وتنتفخان •

لقد بحت لي بهذه المسارّة الغريبة :

« اتدري ، منذ اليوم الثاني كان جلّ عملي ان أمنع نفسي عن التفكير • كنت اتألم اكثر مما استطيع ، فضلا عن ان وضعي كان ميئساً • فلكي اقوى على السير ، كان عليَّ الاّ افكر بهذه الشجاعة • ولكني ، مع الاسف ، كنت لا املك جيداً زمام دماغي الذي كان يشتغل مثل حنفة • على اني كنت استطيع بعد ان أختار له صوره • فكنت أصبّه على فيلم ، على كتاب • وكان الفيلم او الكتاب يكرّ في ذاتي بمطلق سرعته ، ثم يقتادني ذلك الى حالتي السابقة• محتوماً• عند ذاك كنت أطلقه وراء ذكريات اخرى •••»

بيد انك ، ذات مرة ، وقد زلقت متمدداً على بطنك في الثلج، تخلّيت عن النهوض • كنت اشبه بالملاكم الذي ، بعد ان نضب حماسه فجأة ، يسمع الثواني تسقط واحدة واحدة في كون

غريب ، حتى العاشرة التي هي مبرمة •

« لقد فعلت ما بوسعي ولم يعد لي أي أمل • فلماذا اتشبث بهذا الاستشهاد ؟ » كان يكفيك ان تغمض عينيك كي تحل السلام في العالم • كي تمحو من العالم الصخور ، الصقيع والثلوج • بالكاد تغمض ، تلك الأهداب العجائبية ، حتى لا يعود ثمة لكمات ولا سقطات ولا عضلات ممزقة ولا تثلج محرق ولا هذا الوقر من الحياة الذي علينا جره عندما نمضي مثل فدان ويغدو أبهظ من عربة • كنت قد بدأت تستطعم به ، ذلك البرد غدا سماً ، والذي ، كالمورفين ، راح يملأك الآن بالغبطة • لقد لاذت حياتك حول القلب • بعض شيء عذب وثمين مضى يلطى في الوسط من ذاتك ، واخذ وعيك يتخلى رويدا رويداً عن الاقاليم البعيدة من هذا الجسد الذي مضى ، وقد بقي حتى ذاك حيواناً مفعماً بالآلام ، يشارك المرمر لامبالاته •

وساوسك نفسها اخذت تستكين • نداءاتنا لم تعد تبلغك ، او انها ، على الاصح ، تحولت بالنسبة اليك الى نداءات حلم • فكنت هانئاً تجيب عنها بمسيرة حلم ، بخطى واسعة سهلة تشرع امامك مسرات السهول دونما جهد • بأية سهولة كنت تتسلل في

عالم غدا جدّ رقيق بالنسبة اليك ! عودتك ، كنت تعتزم ، أيها البخيل ، غيومه ، ان تحرمنا اياها .

لقد جاء تبكيت الضمير من مطاوي وعيك . بالرؤى امتزجت فجأة تفاصيل واضحة ، « كنت افكر بامرأتي . ان عقد التأمين على حياتي يقيها البؤس . اجل ، ولكن التأمين ... »

في حال فقدان شخص ، فان الموت الشرعيّ يرجأ أربع سنوات . هذه الخاطرة بدت لك باهرة تمحو سائر الصور . كنت ممدداً على بطنك فوق منحدر شديد من الثلج . ولسوف يتدحرج جسدك ، متى جاء الصيف ، مع ذلك الوحل نحو واحدة من آلاف فلقان الآند . كنت تعرف ذلك . ولكنك كنت تعرف ايضاً ان صخرة تنتصب على خمسين متراً امامك : « فكّرت : لو انني انهض ، فلربما استطيع بلوغها . واذا ثبّتّ جسمي لصق الحجر فسوف يجدونه عند حلول الصيف . »

وعندما وقفت ، مشيت ليلتين وثلاثة ايام .

ولكنك لم تكن لتفكر بالمضي ابعد من ذلك :

« حزرت النهاية من علامات كثيرة . اليك احداها . كنت

مجبراً على التوقف كل ساعتين تقريباً لأشق حذائي أكثر قليلا ، وافرك بالثلج قدميّ اللتين كانتا تتورّمان ، أو لأدع قلبي يستريح قليلا فقط . ولكني رحت افقد ذاكرتي حوالى الأيام الاخيرة . وكنت قد استأنفت مسيري منذ زمن طويل عندما كان النور يشرق في داخلي : في كل مرة كنت قد نسيت شيئاً . في المرة الاولى ، نسيت قفّازاً ، وكان ذلك خطيراً في مثل هذا البرد ! كنت قد وضعته امامي ثم استأنفت السير دون ان ألمّه . بعد ذلك ، نسيت ساعتي . ثم مديتي . ثم بوصلتي . في كل محطة كنت أفتقر ...

« الذي ينقذ ، هو القيام بخطوة . ثم خطوة بعد . وانها الخطوة ذاتها نكرّرها دائماً ... »

« ما فعلته ، اقسم لك ، لا يفعله اي حيوان قط . » هذه الجملة ، انبل الجمل التي اعرفها ، هذه الجملة التي تصنّف الانسان ، تشرّفه ، تعيد التصنيف الطبقيّ الحقيقيّ ، كانت تعود الى ذاكرتي . رحت تنام اخيراً ، وقد زال وعيك ، انما من هذا الجسد المفكّك ، المتلف ، المحترق ، كان سيعود فيولد لليقظة ويسيطر عليها من جديد . الجسد ، آنذاك ، لا يعود سوى أداة طيّبة ، الجسد لا يعود سوى خادم . وان كبرياء الأداة تلك ،

كنت تعرف ان تعبّر عنها أيضاً ، يا غيومه !

« بدون غذاء ، تتصوّر جيداً انه في اليوم الثالث من المسير ... لم يعد قلبي كما يجب ... اذ ذاك ، وطوال منحدر عمودي كنت أتسلّقه ، معلّقاً فوق الفراغ ، محتفراً ثقوباً لأضع فيها قبضتي ، واذا بقلبي يتعطّل . تردّد ، ثم عاد فانطلق . ثم راح ينبض نبضاً متقطّعاً . أشعر بانه لو تردّد لحظة اكثر لاستسلمت. انقطعت عن الحركة وأصغيت في ذاتي . أبداً ، أتسمعني ؟ أبداً لم أحسّ بنفسي ، في الطيّارة ، معلّقاً عن كثب بمحرّكي أكثر مما احسستني ، في أثناء البضع دقائق تلك ، معلّقاً بقلبي . كنت اقول له : « هيّا ، جهداً ! حاول ان تنبض بعد ... » ولكنه كان قلباً من الصنف الجيد ! كان يتردّد ، ثم يعود فينطلق دائماً ... ليتك تدري كم كنت فخوراً بهذا القلب ! »

في الغرفة التي في مندوزا حيث كنت اسهر عليك ، رحت أخيراً تغط في سبات متقطّع الأنفاس . وكنت افكّر : « اذا حدّثناه عن شجاعته ، فان غيومه سيهز كتفيه مستخفّاً . ولكننا نخونه ايضاً اذا نحن اشدنا بتواضعه . فهو يصنّف نفسه فوق تلك الشيمة الضعيفة بكثير . واذا هو هزّ كتفيه ، فمن قبيل

الحكمة • فهو يعرف ان الرجال ، عندما يؤخذون في الحدث ، لا يرهبونه • وحده المجهول يرعب الرجال • ولكنه لا يعود المجهول للذي يجابهه • لا سيما اذا هو رازه بذلك الوقار البصير • ان شجاعة غيومه هي ، قبل كل شيء ، تتيجة لاستقامته » •

مزيَّته الحقيقية ليست في هذا قط • عظمته هي في شعوره بانه مسؤول • مسؤول عن نفسه ، عن بريده وعن رفاقه الذين يأملون • انه يمسك بيديه ترحهم او فرحهم • مسؤول عمَّا يشيَّد من جديد ، هنالك ، عند الاحياء ، والذي عليه ان يساهم فيه • مسؤول قليلا عن مصير البشر ، بنسبة عمله •

انه لمن تلك الكائنات الطلقة التي ترتضي ان تظلّل آفاقاً طليقة باغصانها • لأن تكون رجلا ، فهذا ، بالضبط ، أن تكون مسؤولا • هو ان تعرف الخجل بازاء البؤس الذي يبدو غير متعلّق بك • هو ان تكون فخوراً بانتصار أحرزه الرفاق • هو الشعور بانك ، في وضعك حجرك ، تساهم في بناء العالم •

اننا نميل الى خلط أمثال هؤلاء الرجال بمصارعي الثيراز او اللاعبين • نمتدح احتقارهم الموت • ولكني اهزأ باحتقار

الموت • فهو ان لم يستمدّ جذوره من مسؤولية مقبولة لم يكن غير علامة فقر او حميًّا فتوة • لقد عرفت منتحراً فتى • لم اعد ادري اي غمٍّ هوى كان قد دفعه الى اطلاق رصاصه بعناية في قلبه • لا ادري الى اي اغراء ادبي كان قد خضع فكسى يديه بقفازين بيضاوين ، ولكني اذكر انني احسست ازاء ذلك التصنّع المحزن شعوراً ليس بالنبالة هو وانما بالبؤس • هكذا ، وراء هذا الوجه المحبَّب ، تحت جمجمة الرجل هذه ، لم يكن ثمة شيء ، اي شيء • اللهم غير صورة بعض فتاة صغيرة بلهاء شبيهة بسواها •

حيال هذا المصير الهزيل ، تذكرت ميتة رجل حقيقية • ميتة بستاني كان يقول لي : « أتدري ••• أحياناً أعرق فيما انا أنكش الارض • داء العصبي يخذّ جنبي فالعن هذه العبودية • اما اليوم ، فاني اودّ ان أنكش ، انكش الارض • النكش يبدو لي جميلا جداً • لكم نكون أحراراً عندما ننكش ! وبعد ، فمن سيقلّم أشجاري ايضا ؟ » كان يترك ارضاً بوراً • يترك نجمة من النجوم بوراً • كان مشدوداً بالحب الى جميع الاراضي والى جميع اشجار الارض • كان هو السخيّ ، الوفي ، السيّد الكبير !

كان هو ، مثل غيومه ، الرجل الشجاع عندما كان يناضل باسم خليقته ضد الموت .

الفصل الثالث

الطيّارة

ما ضرّ يا غيومه لو نفدت ايام عملك ولياليه في مراقبة المانومترات ، في ضبط توازنك على الجيروسكوبات ، في التسمّع الى انفاس المحركات ، في اتكائك الى خمسة عشر طناً من المعدن : ان المعضلات التي تعترضك هي ، في النهاية ، معضلات رجل ، وانك لتدرك ، دفعة واحدة ، وبملء القوة ، نبالة الجبلي • وكما الشاعر تعرف ان تترشّف بشاعر الفجر • من قاع هوة الليالي العسيرة غالباً جداً ما تمنّيت انبلاج تلك الباقة الشاحبة ، تلك الاشراقة التي تنجبس ، في الشرق ، من الاراضي السوداء •

ولقد سالت ، تلك النبعة العجائبية أحيانا ، أمامك ببطء

وشفتك فيما كنت تظن نفسك هالكاً .

أستخدامك أداة علم لم يجعل منك تقنيّاً جافاً . يخيل الي انهم يخلطون بين الغاية والوسيلة اولئك الذين يبالغون في الخوف من تقدمنا التقني . من يناضل ولا رجاء له الا الخيرات المادية لا يجني ، في الواقع ، ما يستحق الحياة . بيد ان الآلة ليست غاية . الطيارة ليست غاية : انها أداة . أداة كالمحراث .

واذا حسبنا ان الآلة تتلف الانسان فلربما لاننا نحتاج الى شيء من الرجوع الى الوراء كي نحكم على نتائج تغيّرات سريعة كالتي تكبّدناها . ما هي المائة سنة من تاريخ الآلة بالنسبة الى مائتي الف سنة من تاريخ الانسان ؟ بالكاد نحن القينا رحالنا في هذا المشهد من مناجم ومحطات كهربائية . بالكاد بدأنا سكنى ذلك البيت الجديد ، الذي لمّا ننته من بنيانه . كل شيء تغير حولنا بسرعة : العلائق الانسانية ، شروط العمل ، العادات . نفسانيتنا ذاتها قد انقلبت في اكثر اسسها حمامة . مفاهيم الفراق والغياب والبعد والاياب ، لم تعد لتضمن الحقائق نفسها وان كانت كلماتها قد بقيت هي ذاتها . فنحن ، لكي ندرك العالم

اليوم ، نستخدم لغة وضعت لعالم الامس • وان حياة الماضي لتبدو لنا افضل استجابة لطبيعتنا ، ليس الا لانها أفضل استجابة للغتنا •

كل تقدّم أنجز طردنا أبعد قليلا خارج العادات التي ، بالكاد ، اكتسبناها ، واننا في الحقيقة لمهاجرون لم يشيدوا لهم وطناً بعد •

اننا جميعنا أحداث برابرة لما تزل لعبنا الجديدة تفتننا • ولا معنى لسباق طياراتنا غير هذا • فهذا يحلّق أعلى ، يركض بسرعة اكثر • على اننا نسينا لماذا نجعله يركض • السباق يتغلّب ، مؤقتاً ، على غايته • وكذلك يحصل دائماً • ان معنى الحياة عند المستعمر الذي يشيد امبراطورية هو الفتح • الجندي يحتقر المستعمر • ولكن أليست غاية ذلك الفتح اسكان هذا المستعمر ؟ هكذا رحنا ، في هوس تقدّمنا ، نستخدم الرجال لمد الخطوط الحديدية ، لتشييد المصانع ، لاحتفار آبار النفط • لقد نسينا قليلا اننا انما ننجز هذه المنشاءات لخدمة الناس • لقد كانت اخلاقنا ، خلال فترة الفتح ، أخلاق جنود • ولكن علينا ، الان ، ان نستعمر • علينا ان نعيد ذلك البيت الجديد الذي ليس له وجه

بعد بيتاً حياً . لقد كانت الحقيقة ، عند الواحد ، ان يبني ! وهي ، عند الآخر ، ان يسكن .

لا ريب ان بيتنا سيغدو ، شيئاً فشيئاً ، اكثر انسانية . الآلة ذاتها ، كلما ازدادت اكتمالا ازدادت امحاء خلف دورها . يبدو ان كل جهد الانسان الصناعي ، كل حساباته ، كل ليالي سهره فوق المخطَّطات لا تفضي ، من حيث هي علامات منظورة ، الاّ الى البساطة وحدها ، كما لو كان يجب اختبار عدّة أجيال كي نبرز ، شيئاً فشيئاً ، استدارة عمود ، هيكل سفينة ، او جسم طيارة ، بحيث نعيد الى هذه الاشياء الصفاء الاوليّ لتكوّر نهد او كتف . هكذا يبدو ان عمل المهندسين والرسامين وحسابات مكاتب الدراسات ليس هو في الظاهر سوى الصقل والمحو ، تخفيف هذا اللّحام ، موازنة ذاك الجانح حتى لا يعود ملحوظاً ، حتى لا يعود ثمة جناح مثبَّت الى جسم طيارة ، وانما شكل مكتمل اكتمالا رائعاً وقد تحرّر اخيرا من معدنه الخام ، نوع من مجموع عفوي ، مترابط ترابطاً خفيّاً ، ومن الجودة ذاتها التي للقصيدة . يبدو ان الكمال يدرك لا عند انتفاء ثمّة ما يضاف ، بل عند انتفاء ثمّة ما يحذف . ان الآلة ، في تمام نموّها ، تختفي .

هكذا يتاخم كمال الاختراع تواري الاختراع . ومثلما ان كل آليَّة ظاهرة في الأداة قد أمَّحت رويداً رويداً وقدَّمت الينا شيئاً طبيعياً مثل حصاة صقلها البحر ، فانه لمن الرائع كذلك ان تحملنا الآلة ، في اثناء استخدامها بالذات ، على نسيانها شيئاً فشيئاً .

كنا فيما مضى على اتصال بمصنع معقَّد . ولكننا اليوم ننسى ان ثمة محرِّكاً يدور . فهو يلبِّي اخيراً وظيفته ، التي هي الدوران ، كما ينبض القلب ، واننا لا نعير قلبنا اي انتباه . ذلك الانتباه لم تعد الآلة لتستوعبه . اننا نعود فنجد ، ما وراء الأداة ، وعبرها ، الطبيعة القديمة ، طبيعة البستانيّ ، الملاَّح ، او الشاعر .

انما مع الماء ، مع الهواء ، يدخل الطيار الذي يقلع في اتصال . عندما تندفع المحرِّكات ، عندما تشقّ الطيارة البحر ، فان هيكلها يصطدم بالاوذايّ القاسية فيطن مثل الصنج ، ويستطيع الانسان ان يتتبَّع هذا العمل حتى زلزلة ظهره . انه يحس الطيارة المائية ثانية ثانية ، بمقدار ما يكتسب سرعته ، بمقدار ما يضطلع بالسلطة . يحسّ بذلك النضج الذي يمكِّن من الطيران يتهيأ في تلك الأطنان الخمسة عشر من المادة . يطبق الطيار يديه

على المقاود واذا به يتسلّم ، رويداً رويداً ، في قبضتيه المقعّرتين ، تلك السلطة كهبة من الهبات • وبمقدار ما يمنح تلك الهبة ، تروح الاعضاء المعدنية للمقاود تتحول الى رسل لقدرته • وما ان تنضج هذه حتى يفصل الربان ، بحركة أمرن من حركة القطاف ، الطيّارة عن المياه ويجعلها تستقرّ على متن الهواء •

الفصل الرابع

الطيّارة والكوكب

الطيارة آلة دون ريب ، ولكن أيّة أداة تحليل هي • لقد جعلتنا هذه الأداة نكتشف الوجه الحقيقي للارض • في الواقع ، ان الطرق قد خدعتنا طوال اعصر • لقد كنا نشبه تلك العاهلة التي رغبت في زيارة رعاياها ومعرفة ما اذا كانوا مسرورين في ظل ملكها • فأقام المتملّقون من حاشيتها زيناً جميلة على دربها كي يخدعوها ودفعوا لمأجورين كي يرقصوا • وهكذا ، باستثناء هذا الخيط الهزيل المدبَّر ، لم تر شيئاً من مملكتها ولم تدر قط ان في أطراف الريف يلعنها اولئك الذين يموتون جوعاً •

هكذا كنا نسير نحن طوال الطرق المتعرّجة التي تتفادى

الاراضي المجدبة والجلامد والرمال ، تستجيب لحاجات الانسان وتمضي من نبعة الى نبعة ، تقود القرويين من اهرائهم الى اراضي القمح ، تستقبل عند عتبة الاسطبلات المواشي التي ما تزال تنعس وتدفع بها ، عند الفجر ، الى المراعي • انها تصل هذه القرية بتلك لانهم من قرية الى اخرى يتزاوجون • واذا غامرت احدى تلك الطرق في اجتياز صحراء ، رأيتها تنعطف عشرين انعطافة كي تنعم بالواحات •

هكذا بعد ان خدعنا بانحرافات تلك الطرق كما بالشفيقة من الاكاذيب ، وقد حاذينا ، طوال أسفارنا ، أراضي كثيرة جيدة السقي ، وبساتين كثيرة ومراعي ، فكان ان جمّلنا طويلا صورة سجننا • هذا الكوكب ، لقد ظنناه رطباً ورقيقاً •

على ان بصرنا قد استحدّ وتقدّمنا تقدماً شرساً • مع الطيارة ، تعلّمنا الخطّ المستقيم • بالكاد اقلعنا حتى تخلينا عن هذه الدروب التي تعرّج على موارد الماء والاسطبلات، او تتلوّى من مدينة الى مدينة • فما ان تحرّرنا من عبودياتنا المحبوبة وانعتقنا من الحاجة الى الينابيع حتى اتجهنا نحو اهدافنا البعيدة • آنذاك فقط ، ومن اعلى مسايرنا المستقيمة ، اكتشفنا القواعد

الجوهرية ، أسّ الصخر ، الرمل والملح حيث الحياة ، كما قليل من الأشنة في تجويف الاطلال ، تجازف أحياناً ، هنا وثمة ، بالتفتّح كزهرة .

وها نحن أولاء قد تحوّلنا الى فيزيائيين وبيولوجيين تتفحّص هذه المدنيات التي تزيّن قاع الاودية والتي تتفتح احياناً، وتزدحم ، باعجوبة ، كحدائق ، حيثما ساعدها المناخ . ها نحن أولاء نقيّم الانسان على المستوى الكوني ، نراقبه من خلال كوانا ، كما من خلال ادوات درس . ها نحن أولاء نعيد قراءة تاريخنا .

ان الطيار الذي يتجه صوب مضيق ماجيلاّن ، يحلّق ، قليلا الى جنوبي ريو غاليغوس ، فوق دفقة قديمة من الحمم البركانية . هذه الانقاض تجثم على السهل بسماكتها البالغة عشرين متراً . ثم يصادف دفقة ثانية ، فثالثة ، واذا بكل حدبة في الارض، بكل أكمة من مائتي متر ، تحمل فوهتها في جانبها . لم يعد ثمة « فزوف » صلف : وانما اشداق مدافع مركوزة مسح السهل .

على ان الهدوء قد ساد اليوم . واننا لنلقاه بدهشة ذلك

المنظر الحائل ، حيث آلاف البراكين تتحاور بأراغنها السردابية . عندما تبصق نيرانها • ونرانا نحلّق فوق ارض باتت بعد الآن خرساء ، يزخرفها الجليد الاسود •

ولكن ، الى أبعد ، براكين أقدم اكتنست عشباً تبرياً • ثمة شجرة تنبت احيانا في تجويفها كزهرة في أصيص عتيق • وتحت ضوء بلون آخر النهار ، يروح السهل يتجلّى مترفاً كحديقة ، متمدّناً بالعشب المجزوز ، ولا يعود يحدودب الا ضئيلا حوالى أحلاقه العملاقة • أرنب برّي يطفر، عصفور يطير ، الحياة تملكّت جرماً جديداً ، حيث حطّت ، في النهاية ، عجينة الأرض الطيّبة على الكوكب •

اخيراً ، قبيل بونتا ارىناس ، تنردم آخر الفوهات ، ويقترن عشب نسيق بمنحرفات البراكين : فهي لم تعد بعد الآن سوى عذوبة • لقد رتقت كل ثلمة مجدّداً بهذا الكتّان الرقيق • الأرض ملساء ، الانحدارات خفيفة ، واننا لننسى اصلها • فذلك العشب يمحو ، عن جانب التلال ، العلامة القاتمة •

وها هي أبعد المدن الى جنوب العالم ، أتاحتها صدفة قليل

من الطين ، بين الحمم الأصلية والجليد الجنوبي • لكم نحسّ بمعجزة الانسان قريباً من تلك الدفقات السوداء ! يا للّقاء الغريب • فنحن لا نعرف كيف ، لا نعرف لماذا يزور هذا المسافر تلك الجنائن المهيّأة التي تتاح سكناها لوقت جدّ وجيز ، لحقبة جيولوجية ، ليوم مبارك في الايام •

هبطت في عذوبة المساء • بوتتا ارنياس ! أسند ظهري الى نبعة وارنو الى الصبايا • وها انا ذا احسّ ، على خطوتين من نعمائهن ، بالسرّ الانساني احساساً اكمل • ففي عالم تدرك الحياة الحياة جيداً ، حيث الزهور في سرير الريح ذاته تختلط بالزهور ، حيث البجعة تعرف جميع البجع ، البشر وحدهم يبنون عزلتهم •

يا لها مساحة تحفظها بينهم قسمتهم الروحية ! حلم صبية يعزلها عني ، فكيف ادركها في حلمها ؟ وما عسى نعرف عن فتاة تعود الى دارها وئيدة الخطى ، مخفوضة العينين وهي تبسم لنفسها وقد أفعمت بالذرائع والاكاذيب المحبّبة ؟ لقد استطاعت ان تكوّن لنفسها مملكة من خواطر معشوقها ، من صوته ومن سكوته ، ومذ ذاك لم يعد الناس عندها الا برابرة ، ما عداه • اني لأحسها سجينة ، اكثر منها في كوكب آخر ، في سرّها ، في

عاداتها ، في الاصداء المغنّية في بالها • لقد ولدت امس من البراكين ، من العشب او من ملح البحار ، وها هي ذي غدت نصف الهية •

بو تتا ارنياس ! اسند ظهري الى نبعة • عجائز يأتين فينهلن منها ، ولن اعرف من فاجعتهن الا حركة الخادمات هذه • طفل ، رقبته الى الحائط ، يبكي في صمت ، ولن يبقى منه ، في ذاكرتي ، سوى طفل جميل لن يعزّى الى الأبد • انا غريب • لا اعرف شيئاً • لن ألج ممالكهم •

في اي اطار هزيل تتمّ هذه اللّعبة الرحبة من الأحقاد ، من الصداقات ، من الافراح البشرية ! من اين يستمدّ الناس نكهة الخلود هذه ، وهم المجازفون على غرارهم فوق حمم ما تزال بعد فاترة ، وهم المهدّدون بالرمال الآتية ، المهدّدون بالثلوج ؟ ليست مدنياتهم سوى مذّهبات رخصة : بركان يمحوها ، بحر جديد ، ريح رملية •

هذه المدينة تبدو مستقرّة على ارض حقيقية نخالها غنية في العمق مثل ارض من اراضي « البوس » • ننسى ان الحياة ، هنا

كما في غير مكان ، هي ترف ، وانه ليس ثمة ارض ، في اي مكان ، جدّ عميقة تحت خطى الناس • ولكني اعرف ، على عشرة كيلومترات من بوتنا ارييناس ، غديراً يبرهن لنا هذا • انه محاط باشجار داسية ومنازل واطئة ، متواضع كمستنقع في فناء مزرعة ؛ على انه عرضة للمدّ والجزر من غير ما تأويل • وفيما هو يتابع ليلا نهاراً تنفّسه البطيء بين حشد من الوقائع الهانئة ، بين هذا القصب ، بين هؤلاء الاطفال الذين يلعبون ، تراه يخضع لنواميس اخرى • فتحت الصفحة الموحّدة ، تحت الجليد الجامد ، تحت الزورق الوحيد البالي ، تفعل طاقة القمر فعلها • التيّارات البحرية تحرّك تلك الكتلة السوداء من أعماقها • عمليات هضم عجيبة تستمر ، هنا ، حوالى وحتى ضيق ماجيلان ، تحت القشرة الخفيفة من العشب والزهور • هذا المستنقع ذو المائة كيلومتر عرضاً ، على عتبة مدينة حيث يظن الانسان نفسه في داره ، المستقرّ على ارض البشر استقرارا جيّداً ، يخفق بنبض البحر •

نحن نقطن جرماً تائهاً • وهو من وقت الى آخر ، وبفضل الطيارة ، يرينا أصله : مستنقع على صلة بالقمر يوحي بأنساب خفية ــ ولكني عرفت منه امارات اخرى •

اننا نطير ، من بعيد الى بعيد ، على سيف الصحراء بين رأس جوبي وسيسنروس ، فوق نقفات لها شكل جذوع مخروط يترجّح عرضها بين بضع مئات من الخطى والثلاثين من الكيلومترات • أمّا ارتفاعها ، البارز الاتّساق ، فهو ثلاث مائة متر • ولكن ، فضلا عن ذلك التساوي في المستوى ، فهي تبدي الالوان ذاتها، والهباءة ذاتها في ارضها ، والشكل ذاته في خلجانها• ومثلما ان أعمدة احد المعابد لا تني تشير ، في بروزها وحيدة من الرمل ، الى رسوم الطاولة التي انهارت ، هكذا تشهد هذه الركائز المنعزلة على نقفة رحيبة كانت توحّد بينها فيما مضى •

خلال السنوات الاولى لخط الدار البيضاء ــ دكار ، عهد كانت الاجهزة سريعة العطب ، اضطرّتنا الأعطال وعمليات التفتيش والانقاذ الى الهبوط غالبا في المناطق العاصية • الا ان الرمل خادع : نظنه ثبتاً فنغوص فيه • اما المالح القديمة التي تبدو بصلابة الأسفلت وترنّ قاسية تحت كعب الحذاء ، فانها تتخاذل أحياناً تحت عبء العجلات • عندئذ تنبقر قشرة الملح البيضاء عن تتن مستنقع اسود • هكذا كنا تتخيّر ، عندما تسمح الظروف ، صفحة تلك النقفات الملساء : فهي لم تكن تخفي



أشراكاً قط •

كان مردّ هذه الضمانة الى وجود رمل صامد ، ذي حبوب ثقيلة هي عرمة ضخمة من الأصداف الصغيرة • وفيما هي بعد سليمة على صفحة النقفة ، اذا بها تتفتّت وتتجمّع كلما انحدرت طوال احد النتوء • وها هي ذي في قاع أقدم مستودع ، عند قعر الجبل ، تستحيل كلساً صافياً •

وقد حدث ، عهد أسر « رين » و « سير » ، وهما رفيقان كان الثوّار قد قبضوا عليهما ، أنني هبطت فوق أحد تلك الملاجىء لأنزل رسولا مغربياً ، فرحت افتّش واياه ، قبل ان اغادره ، عمّا اذا كان ثمة درب يستطيع ان ينحدر عليها • سوى ان مصطبتنا كانت تفضي ، من جميع النواحي ، الى جرف ينحدر ، عامودياً ، الى الهاوية متثنّياً تثنّي الحرير • كان الفرار مستحيلا •

ومع هذا ، وقبل الاقلاع بحثاً عن مهبط آخر ، فقد لبثت هنا • كنت اشعر بفرح لعله طفولي في أن أسم باقدامي أرضاً لم يطأها بعد ابداً حيوان او انسان • ما من مغربي كان ليستطيع اقتحام هذا الصرح المنيع • ما من اوربي كان قد اكتشف هذه

الارض ابداً • رحت انقل الخطى في رمل لانهائي العذرة • كنت أوّل من راح يسيل ، من يد الى اخرى ، كما التبر الثمين ، غبار الأصداف ذاك • أوّل من عكّر هذا السكون • فوق ذلك النوع من الجليد القطبي الذي لم يكوّن منذ أبد الآبدين تنفة كلأ واحدة • كنت ، صنو بذار أتت به الرياح ، أوّل شاهد على الحياة •

كانت نجمة قد راحت تلتمع فتأملتها • تفكرّت في أن تلك المساحة البيضاء كانت قد بقيت عرضة للكواكب وحدها منذ مئات الالوف من السنين • سماط مفروش بلا دنس تحت السماء الصافية • وأصبت بطعنة في قلبي ، كما على عتبة اكتشاف عظيم ، عندما اكتشفت فوق ذلك السماط ، على خمسة عشر او عشرين متراً مني ، حصاة سوداء •

كنت واقفاً على سماكة ثلاثمائة متر من الأصداف • وكانت الركيزة الضخمة ، بكاملها ، تنفي ، كبرهان قاطع ، وجود أي نوع من أنواع الحجارة • ربما كانت حجارة من المرو ترقد في الأعماق الارضية منبثقة من عمليات الهضم البطيئة التي عرفتها

الكرة • ولكن أية معجزة كانت لترفع احدها حتى ذلك السطح الكثير الجدّة ؟ لمت لقيّتي اذن واجف القلب : حصاة صلبة ، سوداء ، بحجم قبضة اليد ، ثقيلة كالمعدن وقد صبّت في شكل دمعة •

ان سماطاً ممدوداً تحت شجرة تفاح لا يمكنه ان يتلقّى الاّ تفاحاً ، وسماطاً ممدوداً تحت النجوم لا يمكنه ان يتلقّى الا غبار كواكب • أبداً لم يشر نيزك الى أصله بمثل هذه البداهة •

وعندما رفعت رأسي فكرت ، طبيعيا ، في انه من أعلى شجرة التفاح السماوية هذه ، يجب ان يكون سقوط ثمار اخرى • وسأجدها في مسقطها بالذات بما أن شيئاً لم يكن ليزعجها ، منذ مئات الالوف من السنين • بما انها لا تختلط قط بموادّ اخرى • وسرعان ما انطلقت رائداً المكان للتحقق من افتراضي •

ولقد تحقق • جمعت لقاي بمعدّل حجر تقريباً في الهكتار • دائما تلك الهيئة من الحمم المعتجنة • دائماً صلابة الماسة السوداء بالذات • وشاهدت هكذا ، في مختصر أختّاذ ، من أعلى مقياس أمطار النجوم ذاك ، تلك الوبلة البطيئة من النار •

ولكن اروع من هذا كان أن وجد هنالك ، منتصباً على ظهر الكوكب المستدير ، بين هذا الغطاء المغنط وتلك النجوم ، وعي انسان فيه استطاع ذلك المطر ان ينعكس كما في مرآة • فوق ركيزة من المعادن يكون الحلم معجزة • واني لاذكر حلماً •••

سقطت هكذا مرة اخرى في منطقة من الرمل السميك ، ورحت انتظر الفجر • كانت هضاب الذهب تعرض للقمر منحدرها المنوّر فيما منحدرات الظل تصعد حتى خطوط انشطار النور • كان يسود هذا المشغل المقفر من ظلال وقمر سلام شغل متوقّف ، وسلام شرك أيضاً رقدت في صميمه •

عندما استفقت ، لم أر شيئاً الاّ حوض السماء الليلية ، اذ كنت متمدداً على قنّة ، ذراعاي في شكل صليب ووجهي الى تلك البركة من النجوم • ولمّا لم أكن أدري بعد ما كانت تلك الاعماق ، فقد عراني دوار لانعدام جذر به اتمسّك ، لانعدام سقف ، غصن شجرة بين هذه الأعماق وبيني ، وقد أفلتّ مسلماً للسقوط مثل غوّاص •

ولكني لم اقع قط • رحت اكتشف اني ، من قذالي حتى

كعبيَّ ، كنت معقوداً الى الارض • كنت اشعر بنوع من الارتياح في التخلـّي لها عن عبئي • كانت الجاذبية تبدو لي ذات سلطان كسلطان الحب •

كنت احسّ الأرض تدعم صلبي ، تسندني ، ترفعني ، تشيل بي في المتاه الليلي • اكتشفتني متهالكاً على الكوكب بثقل صنو ثقل المنعطفات التي تلصقك بالعربة ، فكنت استمتع بهذا المسند العجب ، بتلك الصلابة ، تلك الطمأنينة ، واتنبَّأ ، تحت جسدي ، بذلك الجسر المنحني لسفينتي •

كان وعيي لكوني محمولا من الشدّة بحيث أني كنت أسمع دونما دهشة شكاة المعادن تصعد من قعر الأرضين فيما هي تتهادن في الجهد ، تلك الأنّة التي تئنّها المراكب الشراعية العتيقة العائدة الى مأواها ، تلك الصرخة المديدة الحادّة التي تطلقها القوارب المعنفة • ولكنَّ الصمت كان يستمرّ في سمك الارضين • ولكن ذلك الثقل كان يتكشّف ، في منكبيَّ ، متناغماً ، مسنوداً ، متساوياً الى الابد • كنت اقطن جيداً هذا الوطن مثلما جثث مجذّفي المراكب ، وقد أوثقت بالرصاص ، قاع البحار •



وتأملت في وضعي ، ضائعاً في الصحراء ، ومهدداً ، عارياً بين الرمل والنجوم ، مبعداً عن أقطاب حياتي بمزيد من الصمت • لأني كنت أعرف أني سأبلي ، في ادراكها ، أياماً ، اسابيع ، شهوراً ، اذا لم تعثر علي أيّة طيارة ، اذا لم يذبحني المغاربة ، غداً • هنا : لم أعد املك اي شيء في العالم • لم أعد شيئاً سوى انسان فان تائه بين الرمل والنجوم ، يعي عذوبة التنفّس وحدها •••

ومع هذا ، استكشفت نفسي مترعاً بالاحلام •

لقد دلفت اليّ ولا جلبة ، مثل مياه النبع ، ولم أفقه ، بادىء الامر ، العذوبة التي كانت تجتاحني • لم يعد ثمة صوت قط ، ولا صور ، وانما شعور بوجود ، بصداقة جدّ قريبة وتكاد تكون نصف مكتشفة • ومن ثم فهمت واستسلمت ، مغمض العينين ، الى فتون ذاكرتي •

كان ، في مكان ما ، حديقة مثقلـــة بالصنوبر الأسود والزيزفون ، وبيت عتيق كنت أحبه • لا يهم انه كان بعيداً او قريباً ، انه لم يستطع بثّ الدفء في لحمي ولا ايوائي وقد غدا هنا في منزلة الحلم : كفى ان وجد ليملأ ليلي بحضوره • لم اعد

ذلك الجسد الذي سقط فوق رملة ، رحت أتوجَّه ، كنت ولد ذلك البيت المفعم بذكرى روائحه ، المفعم بطراءة دهاليزه ، المفعم بالاصوات التي انعشته قديماً وحتى بغناء الضفادع في المستنقعات الذي كان يأتي الى هنا ليدركني • كنت بحاجة الى هذه الألف من المعالم كي اتعرَّف الى نفسي ذاتها ، كي اكتشف من أيّ غياب كان مصنوعاً مذاق هذه الصحراء ، كي أجد معنى لهذا الصمت المكوَّن من ألف صمت ، حيث الضفادع ذاتها تصمت •

كلا ، لم اعد ساكناً بين الرمل والنجوم • لم اعد اتلقَّى من ذلك المشهد الا رسالة باردة • ونكهة الخلود ذاتها التي كنت قد ظننتني استمدّها منه فقد اكتشفت الآن أصلها • رحت أستعيد رؤية خزائن البيت الكبيرة المهيبة • كانت منفرجة بعض الشيء عن اكداس من الشراشف البيضاء مثل الثلج • كانت منفرجة عن ادّخارات مجمَّدة من الثلج ، والمدبِّرة العجوز تقفز مثل جرذ من واحد الى آخر ، متفحِّصة دائماً ، ناشرة ما انطوى ، طاوية ما نشر ، تعيد عدّ المفارش المغسولة ، صائحة : « اواه ، ربي ، يــا للمصيبة » ، لدى كل علامة تهرّىء كانت تهدِّد خلود البيت ، وسرعان ما تهرع تحرق عينيها تحت مصباح ما في رفو

نسيج شراشف المذبح هذه في رتق اشرعة مثلّث الصواري تلك ، في خدمة شيء لا اعرفه اعظم منها ، أاله هو ام سفينة •

آ ! اني لمدين لك حقاً بصفحة • لما كنت اعود من أسفاري الأولى ، كنت ألقاك يا آنستي ، والابرة في يدك ، غارقة حتى الرقبتين في ثناياك البيضاء ، وقد ازددت كل سنة تغضّناً قليلا وازداد شعرك بياضاً ، وما زلت تعدّين بيديك تلك الشراشف التي بدون ثنية لسباتنا ، تلك الاغطية التي بدون خياطة لعشاءاتنا، تلك الأعياد من البلّوريات والنور• كنت ازورك في غرفة بياضك، اجلس قبالتك ، أقصّ عليك مهالكي لاستثيرك ، لافتح عينيك على الدنيا ، لأفسدك • لم أتغيَّر قط ، كنت تقولين • كنت ما ازال ولداً وكنت اثقب قمصاني • ــ آه ! يا لها مصيبة ! ــ وكنت اخدش ركبتيَّ ، ثم اعود الى المنزل ليضمّداهما لي ، مثلني هذا المساء • ولكن لا ، يا آنستي ! ليس من طرف الحديقة انا اليوم عائد • وانما من طرف العالم ، واني أحمل معي رائحة العزلات الحامزة • اعصار الرياح الرملية ، أقمار الأقاليم الاستوائية الساطعة ! كنت تقولين لي مؤكد ان الصبيان يركضون ، يهشّمون عظامهم ويظنون انفسهم جدّ أقوياء • ولكن لا ، يا آنستي ، لقد

رأيت أبعد من هذه الحديقة ! ليتك تدرين كم هي تافهة هذه الأفياء ، ولكم تبدو تيّاهة بين الرمال والمرو والغابات العذراء وغدران الأرض . هل تعلمين فقط ان ثمة اماكن اذا ما الناس فيها التقوك تنكّبوا للحال بنادقهم ؟ هل تعلمين أيضاً ان ثمة بيادي حيث ينامون ، في الليل البارد ، دون سقف ، يا آنستي ، دون سرير ، دون شراشف ...

« آه ! يا لك متوحشاً » ، كنت تقولين .

على اني لم اكن لأنال من ايمانها اكثر مما انال من ايمان خادمة كنيسة . وكنت الوم مصيرها المتواضع الذي جعلها عمياء وصماء ...

ولكني في تلك الليلة ، في الصحراء ، عارياً بين الرمل والنجوم ، أنصفتها .

لا ادري ماذا يحصل في ذاتي . ذلك الثقل يشدّني الى الارض فيما كل هذه النجوم ممغنطة . ثقل آخر يعيدني الى نفسي . أحسّ بوزني يشدّني صوب اشياء كثيرة ! أحلامي اكثر واقعية من هذه الكثبان ، من هذا القمر ، من هذه الحضورات .

آه ! الرائع في المنزل ليس كونه يأويك او يدفئك ، ولا كوننا نمتلك منه الجدران . انما كونه أودع فينا رويداً رويداً هذه المدّخرات من العذوبة . شكّل ، في قرارة القلب ، تلك الركام المظلمة حيث تولد ، وكأنها مياه نبع ، الأحلام ...

يا صحرائي ، يا صحرائي ، ها انت ذي بأسرك مفتونة بغازلة صوف !

الفصل الخامس

واحة

طالما حدثتكم عن الصحراء ، حتى اني اود ّ قبل ان اتحدث عنها مجدداً ان أصف واحة . وتلك التي تعاودني صورتها ليست شائعة في قاع الصحراء . لكن معجزة اخرى من معجزات الطيارة هي انها تغمسك رأساً في قلب السر ّ . كنت ذلك البيولوجي الذي يدرس ، من خلف الكوّة ، المنملة البشرية ، كنت ترنو بقلب يابس الى هذه المدن الرابضة في سهلها ، وسط دروبها التي تشرع في شكل نجمة وتغذّيها ، كما الشرايين ، بعصارة الحقول . بيد ان ابرة ارتجفت على المانومتر ، واذا بتلك الباقة الخضراء ، هناك في الأسفل ، تغدو كوناً من الاكوان . واذا

بك اسير العشب الاخضر في حديقة هاجعة •

ليست المسافة هي التي تقيس مدى البعد • ان لفي استطاعة جدار جنينة من عندنا ان يحتوي أسراراً اكثر من سور الصين ، وان نفس فتاة صغيرة لأفضل صيانة بالصمت مما هي ، بسماكة رمالها ، الواحات الصحراوية •

التقيت محطة قصيرة في مكان ما من العالم • كان ذلك قريباً من كونكورديا ، في الارجنتين ، على انه كان يمكن ان يكون في اي مكان آخر : فالسر منتشر هكذا •

كنت قد هبطت في حقل ولم أكن أدري انني سأعيش حكاية من حكايات الجان • اذ لم تكن تلك « الفورد » العتيقة التي اسير بها لتتميز بأي شيء خاص ، ولا تلك الاسرة الهانئة التي استقبلتني •

« سنؤويك هذه الليلة ••• »

ولكن عند احد منعطفات الدرب انبسطت في ضوء القمر باقة من الاشجار و ، خلف تلك الاشجار ، ذلك المنزل • يا له من

منزل غريب ! كردم ، ضخم يكاد يكون قلعة • قصر خرافة كان يمنح ، منذ ولوج المدخل ، ملاذاً هانئاً ، أميناً ومصوناً مثل دير من الأديرة •

عند ذاك ظهرت فتاتان تفرّستا فيّ بتجهّم مثل قاضيين مرابطين عند عتبة مملكة محرّمة : فهدلت أفتاهما فمها ونقرت الأرض بعصا من الخشب الاخضر ومن ثم ، بعد ان تم التعارف ، مدّتا اليّ يديهما دونما كلمة ، بشيء من التحدّي المثير ، واختفتا •

أمرحني ذلك وفتنني ايضا اذ كان كله بسيطاً ، سكوتاً ومختطفاً مثل اختطاف الكلمة الاولى من ذات سرّ •

« اي ! اي ! انهما متوحّشتان » ، قال الأب ببساطة •

ودخلنا •

كنت أحبّ ، في باراغواي ، ذلك العشب الساخر الذي يبرز أنفه بين حجارة العاصمة ، والذي يأتي من لدن الغابة العذراء غير المنظورة ، انما الحاضرة ، ليتفقّد اذا ما كان الناس ما يزالون

قائمين على المدينة ، اذا لم تكن الساعة قد حانت لدفع جميع هذه الحجارة قليلا . كنت أحبّ هذا الشكل من الطلول التي لا تعبّر الا عن غنى كبير جداً . ولكني هنا فقد فتنت .

لان كل شيء في هذا المكان كان خرباً ، وعلى نحو يعبد ، على غرار شجرة قديمة مكسوّة بأشنة فسّخها الدهر تفسيخاً قليلا ، على غرار مقعد خشبي يقصده العشاق ويقتعدونه منذ حوالى عشرة أجيال . كانت الاخشاب مهترئة ، المصاريع مقرّضة، والكراسي مخلّعة . ولكنهم اذا كانوا لا يرمّمون شيئاً ، فانهم ينظّفون ، هنا ، بحرارة. كان كل شيء نظيفاً ، ملمّعاً ، متوهّجاً.

كانت الصالة تكتسب من ذلك وجهاً ذا كثافة غير اعتيادية مثل وجه عجوز وخطته التجاعيد . تفسّخ الجدران ، تمزّق السقف ، كنت أعجب بكل شيء ، واكثر من كل شيء ، بهذه الارضيّة المتداعية هنا ، المزعزعة هناك ، مثل معبر ، على انها دائماً ملمّعة ، مبرنقة ، مجلوّة . يا للمنزل الغريب لا ينمّ عن اي اهمال ، اي تهاون ، وانما عن احترام غير اعتيادي . كان كل عام يمرّ يضفي، ولا شك ، شيئاً على فتنته ، على تعقيد وجهه ، على حرارة جوّ د

الودّي ، كما على أخطار الرحلة التي كان يجب القيام بها للمرور من القاعة الى غرفة الطعام .

« انتبه ! »

كان ذلك ثقباً . ولفتوني الى أني ، في مثل هذا الثقب ، لكنت اكسر ساقي بسهولة . لم يكن احد مسؤولا عن هذا الثقب : لقد كان صنع الزمن . كانت له هيبة سيّد كبير جداً هذا الاحتقار المطلق لكل عذر . لم يقولوا لي : « كنا نستطيع ان نسدّ جميع هذه الثقوب ، اننا اغنياء ، ولكن ... » لم يقولوا لي كذلك — وان تكن تلك هي الحقيقة : « نحن نستأجر هذا من المدينة لثلاثين عاماً واليها يعود ترميمه . كل واحد منّا يعند .. » انهم يزدرون التفسيرات ، وكان كل هذا اليسر يفتنني . قصارى ما فعلوه ان لفتوا نظري :

« ايه ! ايه ! انه خرب قليلا ... »

وانما بنبرة هي من الخفّة بحيث ارتبت في كون أصدقائي يحزنون لذلك اكثر مما ينبغي . أو هل ترى فريقاً من البنائين ، والنجّارين والآبنوسيين والمجصّصين يبسطون في مثل هذا الماضي

عدّتهم المنجّسة ويعيدون اليك ، خلال ثمانية ايام ، منزلا ما كنت لتعرفه قط ، حيث تظنّ نفسك في زيارة ؟ منزلا دون أسرار ، دون مخابىء ، دون أغاو تحت الأقدام ، دون مناس ، ضرباً من ردهة فندق ؟

لقد توارت الفتاتان بشكل طبيعي في ذلك المنزل ذي الأحابيل . وما عسى ان تكون الأهراء عندما تحتوي الصالة على ثروات هري ! عندما نستبين فيها أن من أقلّ خزانة جدارية منفرجة توشك ان تنهار رزم من الرسائل الصفراء ، من وصولات جدّ الجدّ ، ومن المفاتيح عدد يفوق عدد ما يوجد في المنزل من أقفال ، والتي لا يوافق أيّ منها ، طبعاً ، أي قفل قط . مفاتيح رائعة التفاهة، تحيّر العقل وتحمل على الحلم بسراديب ، بصناديق مطمورة ، بليرات ذهبية .

« لننتقل الى المائدة ، هل تتفضل ؟ »

وانتقلنا الى المائدة . رحت اتنشّق من حجرة الى حجرة تلك الرائحة التي تضوع من المكتبات العتيقة ، تشيع كما البخور وتعادل طيوب الدنيا كلها . ولقد احببت خاصة نقل القناديل .



قناديل حقيقية ثقيلة ، ينقلونها من حجرة الى حجرة ، كما في أعمق ازمنة طفولتي ، والتي كانت تحرّك على الجدران أخيلة رائعة . كانوا يوقظون بها طاقات من النور وسعفات سوداء . فاذا ما استقامت القناديل في مكانها ، جمدت شطآن الضياء ، وتلك الاهراء السحيقة من الليل حواليها ، حيث يطقطق الخشب .

وعادت الفتاتان فظهرتا ، بمثل الخفاء ، بمثل الصمت الذي كانتا قد توارتا به . جلستا الى المائدة مقطّبتين . لقد أطعمتا ولا شك كلابهما ، عصافيرهما ، أشرعتا نوافذهما على الليل الصافي ، وترشّفتا في هواء المساء رائحة النبات . انهما الان ، وقد نشرتا فوطتيهما ، تراقبانني من طرف العين ، بحذر ، متسائلتين هل تدرجانني أم لا في عداد حيواناتهما الأليفة . لانهما تملكان ايضاً ايغواناً ونمساً وثعلباً وقرداً ونحلا . جميع هذه الحيوانات تحيا حياة خليطاً ، على تمام تفاهم ، مؤلّفة فردوساً أرضيّاً جديداً . وانهما لتسودان على جميع حيوانات الخلقية ، تسحرانها بايديهما الصغيرة ، تطعمانها ، تسقيانها ، وتسردان عليها حكايات تستمع اليها ، من النمس الى النحلات .

وكنت أتوقّع أن أرى فتاتين على مثل هذه الحيويّة تستعينان بكامل حسّهما النقدي ، بكامل رهافتهما : في اصدار حكم سريع ، خفي ، قاطع ، على هذا الرجل الجالس حيالهما • في طفولتي، كان اخواتي يمنحن هكذا علامات للمدعوين الذين كانوا يشرّفون مائدتنا للمرة الاولى • وعندما كانت تفتر المحادثة ، كنا نسمع ، فجأة ، في الصمت : « أحد عشر ! » ترّن ، ولم يكن احد ، ما خلا اخواتي وانا ، ليتذوّق فتنتها •

كانت خبرتي في هذه اللّعبة تجعلني اضطرب قليلا • ولقد زاد في حرجي شعوري بنباهة قاضيّتيّ • فهما قاضيتان تعرفان ان تميّزا الحيوانات المخادعة من الحيوانات الساذجة ، تعرفان ان تقرآ في وقع خطى ثعلبهما ما اذا كان ام لا ذا مزاج يعبد ، تملكان معرفة جدّ عميقة بالحركات الداخلية •

كنت اهوى تلك العيون الثاقبة وهاتين الروحين المستقيمتين، ولكني لشدّ ما كنت أفضّل أن تغيّرا من لعبتهما• بيد اني رحت، بخساسة ، وخشية الـ « أحد عشر » ، أقدّم لهما الملح ، أصبّ لهما الخمر ، ولكني كنت اعود فأقع ، عندما ارفع عينيّ ، على

التجهّم العذب لقاضيتين لا تشتريان •

الثناء نفسه لم يكن ليجدي : كانتا تجهلان الغرور • الغرور، وليس الزهو الجميل ، وتظنان بنفسهما ، من دون معونتي ، أكثر خيراً مما كنت لاجرؤ على قوله • لم افكّر حتى في أن استمدّ امتيازاً من مهنتي لأنّ غير هذه الجسارة جسارة التسلّق حتى أعلى أغصان دلبة وهذا لمجرد رؤية ما اذا كانت أفراخ العصافير تريّش ، لالقاء تحية على الأصدقاء الصغار •

وكانت حوريّتاي الصامتان لا تنفكّان تراقبان وجبتي مراقبة دقيقة ، وكنت غالباً جداً ما أصادف نظرتهما الخاطفة بحيث اني انقطعت عن الكلام • فساد صمت وصفر خلال هذا الصمت شيء صفرة خفيفة على الأرضيّة ، ضوضى تحت الطاولة ، ثم صمت • رفعت عينين واجستين ، فاذا بالصغرى ، وقد خرجت دون شك راضية من امتحانها ، تعمد الى اخر سهامها فتغرز في خبزتها أسنانها الفتية الوحشية وتوضح لي فقط ، ببراءة كانت ترجو منها ، في الواقع ، ان تذهل البربريّ ، في حال كوني بربرياً :

« انها الأفاعي • »

وصمتت ، راضية ، كما لو ان هذا الايضاح كان ليكفي أيّ امرىء ليس بكثير بلاهة . فاختطفت أختها نظرة عجلى لتحكم على بادرتي الأولى ، وأحنت كلتاهما نحو صحنها وجهاً من اكثر الوجوه عذوبة واوفرها براءة في العالم .

« آه !... انها الافاعي ... »

طبيعياً أفلتت مني هذه الكلمات . كان ذلك الشيء قد زلق بين ساقيّ ، كان قد لامس ربلتيّ ، وكان ذلك أفاعي ...

لحسن حظيّ ابتسمت . ودون تكلّف : والاّ لشعرتا به . ابتسمت لاني كنت مرحاً،لأن هذا المنزل كان في كل دقيقة يروق لي اكثر، ولأني كنت اشعر ايضاً بالرغبة في أن ازيد معرفتي بالأفاعي. فأنجدتني الكبرى :

وكرها في ثقب ، تحت الطاولة .

واضافت الصغرى :

ــ تأوي اليه حوالى الساعة العاشرة مساء . وأمّا في النهار ، فانها تقنص . »

وبدوري ، استرقت نظرة خاطفة الى هاتين الفتاتين ٠ رهافتهما ، ضحكتهما الخافتة وراء الوجه الرضيّ ٠ وكنت أفتتن بتلك الملوكية التي تمارسانها ٠٠٠

اني احلم ، اليوم ٠ كل ذلك بات جدّ نائياً ٠ ما عساهما غدتا تانك الحوريتان ؟ لا شك انهما تزوجتا ٠ ولكن هل تغيَّرتا ؟ انه لمن الأهمية بمكان المرور من حالة الفتاة الى حالة المرأة ٠ ماذا تصنعان في منزل جديد ؟ ماذا غدت علاقاتهما بالعشب المجنون والافاعي ؟ كانتا مختلطتين بشيء كوني ٠ ولكنّ يوماً يأتي تستيقظ فيه المرأة في الفتاة ٠ تحلم بان تمنح أخيراً تسع عشرة علامة ٠ تسع عشرة تنوء بها أعماق القلب ٠ حينذاك يتقدّم أحمق٠ ولاول مرة تخطىء مثل تينك العينين الثاقبتين فتنيرانه بالألوان الجميلة ٠ ذلك الأحمق ، اذا قال الشعر ، ظنّ شاعراً ٠ نحسبه يفهم الأرضيَّة المثقَّبة ، نحسبه يحبّ النموس ــ نحسب أن تلك الثّقة اطراء له ، ثقة أفعى تتهادى ، تحت الطاولة ، بين ساقيه ، فنمنحه قلبنا الذي هو جنينة بريّة ، نمنحه له هو الذي لا يحبّ الاّ الحدائق المنسّقة ٠ ويمضي الأحمق بالاميرة سبيَّة ٠



الفصل السادس

في الصحراء

مثل هذه العذوبات كانت محرّمة علينا لمّا كنا نمضي الاسابيع، الاشهر والسنوات ، ملاّحين على خط الصحراء ، سجناء الرمال ، نطير من حصن الى آخر ، دونما عودة . لم تكن هذه الصحراء لتتيح واحات مماثلة : جنائن وفتيات ، يا لها من خرافات ! مؤكد ان هناك ، بعيداً جداً ، حيث نستطيع عودة الى الحياة بعد انهاء عملنا ، كانت ألف فتاة في انتظارنا . مؤكد انّهن ، هناك ، بين كتبهنّ ، كنّ ينتظمن لانفسهن بصبر نفوساً سائغة . مؤكد انهن كنّ يزددن حسناً ...

ولكني اعرف الوحدة . ثلاث سنوات في الصحراء لقنتني

طعمها جيداً . ولسنا لنرهب فيها لشباب يبلى في منظر صخري ، لكن العالم باسره يتبدّى خلالها وكأنه يهرم ، بعيداً عنك . الاشجار عقدت ثمارها والارض اخرجت قمحها والنساء اغتدين جميلات . لكن الموسم يتقدّم ويجب ان نسرع في الاياب ... بيد ان الموسم يتقدّم ونحن على بعد ... وخيرات الارض تنسلّ بين الاصابع مثل رمل الكثبان الدقيق .

عادة لا يشعر الناس بانسياب الزمن . فهم يعيشون في سلام موقّت . ولكن ها نحن نشعر به ، وقد بلغنا المحطة، ورزحنا تحت عبء الرياح اللافحة ، التي لا تكف عن المسير . كنا اشباه ذلك المسافر في القطار السريع الطافح بضوضاء العجلات الضاربة في الليل ، والذي يستبين ، من حفنات النور المبدّدة ، خلف الزجاج ، انسياب الأرياف ، قراها واملاكها المسحورة التي لا يستطيع ان يلمّ بشيء منها لانه على سفر . كذلك نحن ، وقد ألهبتنا حمّى خفيفة ، وما انفكّت آذاننا صافرة من ضجة الطيران، كنا نشعر باننا ما نزال مسافرين برغم هدوء المحطة . كنا نكتشف أنفسنا ، نحن أيضا ، محمولين نحو مستقبل مجهول ، عبر وطأة الرياح ، على نبضات قلوبنا .

كان العصيان يزيد في وحشة الصحراء • فليالي رأس جوبي كانت ، من ربع ساعة الى ربع ساعة ، مقطّعة ، كما بصنج ساعة جدارية: فكان الحرّاس ، من أدنى الى أدنى، ينذر واحدهم الآخر بنداء كبير نظامي • هكذا كان حصن رأس جوبي الاسباني ، الضائع في المتاه الثائر ، يحمي نفسه من أخطار ما كانت تبرز وجهها قط • ونحن ، مسافرو هذه المركبة العمياء ، كنا نسمع النداء يتضخّم كلما اقترب ، ويرسم حولنا دوائر طيور البحر •

ومع هذا ، فقد احببنا الصحراء •

★★★

ان لم تكن اولا سوى فراغ وصمت ، فذاك لأنها لا تنفتح للعشّاق العابرين • ان قرية بسيطة من قرانا تحجب نفسها • فاذا لم تتخلّ ، من اجلها ، عن سائر العالم ، اذا لم ندخل في تقاليدها ، في عرفها ، في منافساتها ، جهلنا كل شيء عن الوطن الذي تؤلفه بالنسبة الى البعض • بل وافضل من هذا ايضا ، ذلك الرجل الذي حجر نفسه في صومعته ، على خطوتين منا ، ويحيا حسب اصول نجهلها • مثل هذا الرجل يبرز حقاً من عزلات تيبتيّة ، على

بعدة لا تبلغنا اياها أية طيّارة أبداً • فيم زيارتنا زنزانته ! انها خالية • مملكة الانسان داخلية • هكذا الصحراء ليست هي مصنوعة من رمل ، ولا من الطوارق (١) ولا من البربر حتى المسلّحين ببندقية •••

ولكن ها نحن اليوم وقد شعرنا بالظمأ • وتلك البئر التي كنا نعرفها ، نكتشف ، اليوم فقط ، أنها تشعّ على البسيطة • هكذا تستطيع امرأة غير منظورة ان تفتن منزلاً باسره • وربّ بئر منسيّة تحمل بعيداً ، مثل الحب •

الرمال ، للوهلة الأولى ، هي قفراء ، ثم يأتي اليوم الذي نخشى فيه حصول غزوة ، فنروح نقرأ فيها ثنايا المعطف الكبير الذي به تتدثر • الغزوة ايضا تغيِّر ملامح الرمال •

لقد ارتضينا قاعدة اللّعب ، واللّعب يصنعنا على صورته • الصحراء ، انما هي في ذواتنا تتبدّى • ولأن ندنو منها فليس ذلك قط زيارة الواحة ، بل أن نجعل ديناً لنا من نبعة ماء •

---

(١) ـ من القبائل المترحلة في الصحراء •

— ٢ —

منذ رحلتي الأولى ، عرفت طعم الصحراء . كنا قد سقطنا ، ريفيل ، غيّومه وانا ، قرب حصن نواقشوط . وكان هذا الموقع الصغير من موريتانيا ، وقتذاك ، منعزلاً عن كل حياة كما الجزيرة الضائعة في البحر . وكان رقيب شيخ يعيش فيه متحصناً مع خمسة عشر سنغالياً . استقبلنا كموفدين من السماء :

« آه ! انني لأشعر بفرح عميق في مخاطبتكم .... آه ! ما اشدّ سروري ! »

كانت رؤيتنا تشجيه : فيبكي .

« انتم أول القادمين منذ ستة أشهر . انهم يزودونني بالمؤن كل ستة أشهر . مرة يأتي الملازم ، ومرة يأتي النقيب . في المرة الاخيرة كان النقيب هو الذي أتى .... »

كنا ما نزال بعد ذاهلين . على ساعتين من دكار ، حيث يعدّون غذاءنا ، انفجر ضابط الدافعة ، فتغيَّر مصيرنا . واذا بنا نقوم بدور الظهور لهذا الرقيب الشيخ الذي يبكي .

« آه ! اشربوا ، انه ليسرني أن أقدم الخمر ! تأملوا قليلا ! عندما مرّ النقيب لم يكن قد بقي لديّ خمر للنقيب • »

لقد رويت ذلك في أحد كتبي ، ولكنه لم يكن قط من قبيل القصة • قال لنا :

« آخر مرة ، لم أستطع حتى قرع الكأس ، ••• ولقد خجلت خجلا شديداً بحيث طلبت نقلي • »

مقارعة الكأس ! مقارعة الكأس مقارعة كبرى مع الآخر ، الذي يترجّل عن مهره ، متصببا عرقاً ! طوال ستة أشهر كنا قد عشنا من أجل هذه اللحظة بالذات • منذ شهر ونحن نلمّع الاسلحة ، نصقل المركز من القبو حتى العليّة • وها نحن ، منذ بضعة ايام ، نراقب، وقد شعرنا بدنوّ اليوم المبارك ، من أعلى السطح، ودونما كلل ، الأفق كيما نكتشف فيه اخيراً ذلك الغبار الذي تتلفّع به ، عندما تطلّ ، مفرزة « آتار » السيّارة •

واذا بالخمر ينقصنا فلا نستطيع الاحتفال بالعيد • لن نقارع الكؤوس • نكتشف انفسنا مكسوين بالعار •••

« تشوقني عودته كثيراً . اني لفي انتظاره ...

ـ وأين هو ، أيها الرقيب ؟

وذاك الرقيب يشير الى الرمال :

« لسنا نعرف ، انه في كل مكان ، النقيب ! »

كانت واقعية أيضاً ، تلك الليلة التي أمضيناها على سطح الحصن ، تتكلم على النجوم . لم يكن ثمة ما نرعاه سواها . كانت هنا ، بكامل عددها ، مثلها في الطيارة . ولكن ثابتة .

في الطيارة ، عندما يكون الليل جميلا ، نسلس لأنفسنا القياد، نكف عن القيادة، وتنحني الطيارة شيئاً فشيئاً الى اليسار. نخالها ما تزال بعد أفقية عندما نكتشف تحت الجانح الأيمن قرية . ولكن ليس من قرى في الصحراء . اذن انها أسطول صغير للصيد في البحر . ولكن ليس من أسطول صغير للصيد عرض الصحراء . اذن ؟ اذن نبتسم للخطأ . وبتؤدة ، نعدّل الطيارة . وتعود القرية الى احتلال مكانها . فنعود نعلّق في مقاودنا المجرة التي كنا قد تركناها تسقط . قرية ؟ نعم . قرية نجوم . ولكن ، من أعلى

الحصن ، ليس ثمة سوى صحراء كأنها متجمدة ، أمواج رمال دونما حركة .

نيّرات معلّقات تعليقاً ثابتاً . والرقيب يكلمنا عنها :

« هيّا ! أعرف جهاتي جيدا .... يمّم شطر تلك النجمة ، رأساً صوب تونس !

ــ هل أنت من تونس ؟

ــ « كلا . ابنة عمي . »

وساد صمت طويل جدا . لكن الرقيب لا يجرؤ على اخفاء شيء عنا :

« ذات يوم ، سوف أذهب الى تونس . »

اكيداً ، عن طريق آخر غير الاتجاه رأساً شطر تلك النجمة . الا اذا أسلمته بئر ناضبة ذات يوم حملة الى شاعرية الهذيان . عندئذ تختلط النجمة وابنة العم وتونس بعضها ببعض . عندئذ يبدأ ذلك السير الملهم ، الذي يظنه من لا خبرة لهم أليماً .

« طلبت ذات مرة اذناً من النقيب بالذهاب الى تونس ، مسألة تتعلق بابنة العم تلك . وأجابني ...

ـ وأجابك ؟

ـ وأجابني : « ان العالم ليغصّ ببنات العم . » وأرسلني الى دكار ، كما لو كانت أقل بعداً .

ـ كانت جميلة ، ابنة عمك ؟

ـ التي في تونس ؟ بكل تأكيد . كانت شقراء .

ـ كلا ، التي في دكار ؟

أيها الرقيب ، كدنا نقبّلك لجوابك المغتاظ بعض الشيء ، والكئيب :

« كانت زنجية ... »

★★★

الصحراء عندك ، أيها الرقيب ؟ لقد كانت ربّاً دائم السير نحوك . وكانت كذلك عذوبة ابنة عم شقراء وراء خمسة آلاف

كيلومتر من الرمل .

وأما الصحراء عندنا ؟ فقد كانت ذاك الذي يولد فينا . ذاك الذي تتعلمه بشأن أنفسنا . نحن كذلك ، في تلك الليلة ، كنا نهيم حباً بابنة عم ونقيب ...

— ٣ —

ليست بورت اتيين ، عند تخوم المناطق العاصية ، مدينة . ان فيها حصناً وعنبراً للطائرات وكوخاً خشبياً للملاّحين الذين من عندنا . الصحراء ، من حولها ، مطلقة الى حد ان بورت اتيين ، رغم ضآلة مواردها العسكرية ، تكاد تكون حصناً منيعاً . ولا بدّ لمهاجمتها من اجتياز نطاق شاسع من الرمل والنار . فالغزوات لا تستطيع بلوغها الا على آخر رمق من قواها ، بعد نفاد احتياطي الماء . مع هذا ، ومنذ ما يذكر البشر ، شنت دائما ، في مكان ما من الشمال ، غزوة على بورت اتيين ، وفي كل مرة كان يأتي النقيب الحاكم الى عندنا ليشرب قدحاً من الشاي ، كان يرينا مسيرها على الخرائط ، مثلما يروون خرافة أميرة جميلة . لكن هذه الغزوة ما كانت تصل أبداً ، وقد أنضبها الرمل

نفسه ، مثل نهر ، وكنا ندعوها الغزوة الشبح . القنابل اليدوية والخرطوش الذي توزعه الحكومة علينا في المساء ينام في صناديقه عند أقدام أسرّتنا . ولم يعد علينا أن نقاوم عدواً غير الصمت ، يقينا ، قبل كل شيء ، بؤسنا . ولوقا ، رئيس المرفأ الجوي ، يدير ، ليلا نهاراً ، الغراموفون الذي ، في هذا البعد الشاسع عن الحياة ، يكلّمنا لغة نصف مفقودة ، ويثير كآبة لا غرض لها تشبه العطش شبهاً غريباً .

★★★

ذلك المساء ، تناولنا العشاء في الحصن . أرانا النقيب جنينته البديعة . الواقع انه تلقى من فرنسا ثلاثة صناديق ملأى بتراب حقيقي ، اجتازت هكذا أربعة آلاف كيلومتر ، ونبتت في ترابها ثلاث ورقات خضراء كنا نداعبها بالأنمل كأنها الجواهر . عندما يتكلم النقيب عليها يقول : « انها حديقتي . » وعندما تهبّ الريح الرملية التي تيبس كل شيء ، ينزلون الحديقة الى القبو .

كنا نقيم على كيلومتر من الحصن ، ونعود الى مأوانا في ضوء القمر ، بعد العشاء . الرمل وردي تحت القمر . نحن نحس

بعوزنا ، لكن الرمل وردي • ولكن نداء حارس يعيد الى العالم حس ّ التأثر • انها الصحراء بأسرها يعروها الوجل من ظلالنا وهي تسألنا ، لأن ثمة غزوة تزحف •

جميع أصوات الصحراء ترن ّ في صيحة الحارس • لم تعد الصحراء سوى بيت خال : قافلة مغربية تمغنط الليل •

نستطيع ان نخالنا في مأمن • ومع هذا ! كم من أخطار تزحف : مرض ، طارىء ، غزوة ! الانسان على الارض هدف لرماة سر ّيين • لكن الحارس السنغالي ، مثله مثل نبي ، يذكّرنا بذلك •

نجيب : « فرنسيون هيا ! » ونمر أمام الملاك الأسود • وتتنفس تنفساً أفضل • أي نبل أعاده الينا ذلك الانذار ••• أجل ! انه ما يزال بعيداً ، قليل الالحاح ، أخذ منه متاه الرمل كل مأخذ : ولكن العالم لم يعد نفسه • لقد صارت فخمة ، هذه الصحراء • غزوة تزحف في مكان ما ولا تصل أبداً ، تكو ّن ألوهتها •



انها الآن الحادية عشرة ليلا • لوقا يعود من مركز الراديو ويزف الي موعد وصول طيارة دكار في منتصف الليل • كل شيء على ما يرام على متنها • بعد عشر دقائق من منتصف الليل نكون قد نقلنا البريد الى طيارتي فأقلع نحو الشمال •

رحت احلق ذقني بحذر أمام مرآة مصدّعة • وكنت بين حين وآخر أمضي ، والمنشفة الاسفنجية حول عنقي ، الى الباب وأنظر الرمل العاري : الطقس جميل ، ولكن الريح تهمد • وأعود الى المرآة • أفكر • ان ريحاً استقرت لأشهر قد تعكّر السماء بأسرها ان هي همدت • وها انا أجهّز نفسي كيفما اتفق : مصابيح الغوث معقودة في نطاقي ، مقياس الارتفاع ، أقلامي • مضيت الى « نيري » الذي سيكون ، في هذه الليلة ، لاسلكياً في الطيارة • كان يحلق ذقنه ايضا • فقلت له : « هل أنت على ما يرام ؟ » حتى الآن على ما يرام • هذه العملية التمهيدية هي أقل عمليات الطيران صعوبة • ولكني أسمع صريرا ، يعسوب يرتطم بمصباحي ، ودون أن أعرف لماذا ، يقرص قلبي •

خرجت ثانية ونظرت : كل شيء صاف • صخرة شامخة تنهض في طرف المكان وتلوح على السماء كما لو كان الوقت

نهاراً • على الصحراء يسود صمت كبير ، صمت منزل مرتَّب • واذا بفراشة خضراء ويعسوبين يلطمان مصباحي فأحسّ مجدداً بعاطفة صمّاء ، لعلها فرح ، لعلها وجل ، ولكنها صادرة من اعماق نفسي ولما تزل بعد شديدة الغموض تكاد لا تنمّ عن ذاتها • أحدهم يكلمني من بعيد جداً • أهي هذه الغريزة ؟ خرجت مرة أيضاً : الهواء همد تماما • ما زال الطقس منعشاً • لكني تلقيت تحذيراً • تبيَّنت ، خلت أنني تبيَّنت ما أنتظر : تراني على صواب ؟ فلا السماء ولا الرمل أومآ اليّ باشارة ، وانما يعسوبان كلّماني ، وفراشة خضراء •

وأصعد على أحد الكثبان وأجلس قبلة الشرق • اذا كنت مصيباً ، فـ « هذا » لن يتأخر طويلا •

عمّا كان يبحث هنا ، ذانك اليعسوبان ، على مئات الكيلومترات من واحات الداخل ؟

ان حطاما نذرة مجروفة الى الشطآن تنمّ عن اعصار يعصف في البحر • كذلك هذه الهوامّ تنبئني بأن عاصفة رملية آخذة في الزحف ، عاصفة من الشرق أجلت عن منابت النخيل القصيَّة

فراشاتها الخضراء . ها هو زبدها يلمسني . وتهب ّ ريح الشرق بمهابة، لأنها دليل، وبمهابة، لانها انذار عنيف، وبمهابة، لانها تحمل عاصفة . وبالكاد تبلغني تنهُّدتها الضعيفة . اني الحدّ الأقصى الذي تلحسه الموجة . على عشرين مترا ورائي ، ما كان أي شراع ليرعش بتاتاً . ولقد لفَّعتني حرقتها مرة ، مرة واحدة ، بدغدغة كانت تبدو ميتة .

لكني أعرف جيداً أن الصحراء ستستعيد تنفسها في الثواني التالية وستطلق تنهدتها الثانية . وأنه لن تمضي ثلاث دقائق الا ويخفق كمّ الهواء على عنبرنا . ولن تنقضي عشر دقائق حتى يملأ الرمل السماء . وعما قريب سنقلع وسط هذه النار ، هذه العودة للهيب الصحراء .

لكن ليس هذا ما يؤثّرني . ما يفعمني بفرح بربري ، هو كوني فهمت بالالماع لغة خفية ، هو كوني تشمَّمت أثراً على نحو رجل بدائي فيه يعلن المستقبل نفسه برائجات ضعيفة ، هو كوني قرأت ذلك الغضب في رفيف جناحي يعسوب .

— ٤ —

كنا هنالك على اتصال بالمغاربة المتمردين • فكانوا يطلعون من أعماق الاراضي الممتنعة ، تلك الاراضي التي كنا نجتازها في طيراننا ، ثم يغـامرون بأنفسهـم حتى حصني « جوبي » و « سيسنروس » ليبتاعوا منهما الخبز والسكر او الشاي ، ومن ثم يعودون الى الانغماس في سرهم • وكنا نحاول ، في أثناء مرورهم ، ان تتقرب من بعضهم •

وعندما يكون هؤلاء زعماء متنفذين ، كنا نحملهم أحيانا في طيّاراتنا ، بالاتفاق مع ادارة الخطوط ، كي نريهم العالم ، وذلك قصد اطفاء كبريائهم • لأنهم انما بدافع الكبرياء أكثر مما بدافع الحقد ، كانوا يقتلون الأسرى • فاذا هم صادفونا في ضواحي الحصون ، لم يقدموا حتى على شتمنا • كانوا يشيحون عنا ويبصقون • وتلك الكبرياء ، كانوا يستمدونها من توهـّم قدرتهم • وكم ردد لي أفراد منهم ، وقد جنـّدوا للحرب جيشا من ثلاثمائة بندقية : « حظكم كبير ، في فرنسا ، لانكم على مسيرة اكثر من مائة يوم ••• »

كنا ننزههم اذن ، وقد حصل أن زار ثلاثة من بينهم فرنسا المجهولة تلك • كانوا من عرق اولئك الذين رافقوني ذات مرة الى السنغال فبكوا لاكتشافهم وجود الأشجار •

عندما وجدتهم ثانية تحت خيامهم ، كانوا يقيمون حفلات رقص ، فيها ترقص النساء عاريات بين الزهور • ها هم رجال لم يسبق لهم ان رأوا أبداً شجرة ولا عين ماء ولا وردة ، ويعرفون ، بواسطة القرآن وحده ، وجود الجنائن حيث تجري السواقي ، بما أنهم هكذا يسمون الفردوس • هذا الفردوس وجميلات سباياه يظفرون به بالموت المرير على الرمل ، برصاصة من بندقية كافر ، بعد ثلاثين سنة من البؤس • ولكن الله يخدعهم، بما انه لا يطلب من الفرنسيين الذين منحوا جميع هذه الكنوز لا فريضة الظمأ ولا فريضة الموت • لذا يحلم ، الآن ، الزعماء الشيوخ• ولهذا تراهم ، بعد التأمل في الصحراء التي تمتد، قاحلة، حول خيمتهم وتعرض عليهم ، حتى الموت ، مسراتها العجاف ، يتركون لأنفسهم البوح بمكنونها •

« أتدري ••• ربّ الفرنسيين ••• انه اكرم نحو

الفرنسيين من ربّ المغاربة نحو المغاربة ! »

قبل ذلك ببضعة أسابيع كنا ننزههم في السافواي • اقتادهم دليلهم حيال شلال دافق ، نوع من عمود جديل ، وكان يهدر :

« تذوقوا » ، قال لهم •

وكان ذلك ماء عذبا • الماء ! كم يوم مسيرة يلزم الانسان ، هنا ، كي يصل اقرب الآبار ، واذا هو وجدها ، كم ساعة تلزمه ليحتفر الرمل الذي يملأها كي يبلغ وحلا ممزوجا ببول الأبل ! الماء ! في رأس جوبي، في سيسنروس، في بورت اتيين ، لا يستعطي صغار المغاربة النقود ، وانما يسألون ، في علبة محفوظات يحملونها ، ماء :

« اعط قليلا من الماء ، اعط •••

ـ ان كنت عاقلا • »

الماء الذي يعادل وزنه ذهباً ، الماء الذي تستل أقلّ نقاطه من الرمل الشرارة الخضراء من نبتة عشب • فاذا أمطرت في مكان ما ، أنعشت الصحراء هجرة كبرى • القبائل تصعد نحو العشب الذي

ينبت على بعد ثلاثمائة كيلومتر . وذلك الماء الشحيح ، الذي لم تسقط منه قطرة واحدة في بورت اتيين منذ عشرة أعوام ، ها هو يهدر ، ههنا ، كما لو كانت ، من صهريج بقر ، تندفق مدّخرات العالم .

« لنمض » ، قال لهم دليلهم .

لكنهم لم يتحركوا :

« دعنا ايضاً ... »

ولبثوا صامتين ، يشاهدون متجهّمين ، خرسا ، هذا السيلان من سر عظيم . الذي كان ينهار هكذا ، خارج بطن الجبل ، كان الحياة ، كان دم البشر نفسه . لكان دفق ثانية يبعث من الموت قوافل باسرها غاصت ، وقد أسكرها العطش ، في اللانهائي من بحيرات الملح والسراب ، الى الابد . كان الله ، هنا ، يتجلى . فلا يستطيع المرء أن يدير له ظهره . الله يفتح خزّاناته ويظهر قدرته : ولبث المغاربة الثلاثة جامدين .

« ما عساكم ترون اكثر من ذلك ؟ تعالوا ...

ــ يجب الانتظار •

ــ انتظار ماذا ؟

ــ النهاية • »

كانوا يريدون انتظار الساعة التي فيها يتعب الله من جنونه ، فيأخذه الندم بسرعة ، انه بخيل •

« لكن هذا الماء يسيل منذ ألف سنة !••• »

ولم يلحّوا ، ذلك المساء ، على الشلال • من الأفضل كتمان بعض المعجزات • لا بل من الافضل عدم التفكير فيها طويلا ، والا لما عاد الانسان يدرك أي شيء • والا ارتاب في الله •••

ربّ الفرنسيين ، أرأيت ••• »

★★★

بيد أني أعرفهم جيداً ، أصدقائي البرابرة • انهم ههنا ، وقد عرت ايمانهم ريبة ، حيارى ، على أهبة الخضوع بعد الآن • انهم يحلمون بان تزودهم الادارة الفرنسية بالشعير وتضمن قواتنا

الصحراوية أمنهم • وصحيح أنهم متى خضعوا يكونون قد ربحوا خيرات مادية •

لكنهم ، الثلاثة ، من دم المأمون ، امير الطرارزه• (اظن انني اخطىء في اسمه •)

عرفت ذلك الرجل عندما كان عميلا لنا • كان يستقبل في الحفلات الرسمية لما أدّاه من خدمات ، وأغناه الحكام واحترمته القبائل ، فلم يكن لينقصه ، على ما يبدو ، اي شيء من الثروات المنظورة • ولكنه ذات ليلة ، ودونما اشارة تنم عما أضمر ، ذبح الضباط الذين كان يرافقهم في الصحراء ، استولى على الجمال والبنادق والتحق بالقبائل العاصية •

يسمّونها خيانات هذه التمردات المفاجئة ، هذا الفرار : البطولي واليائس معا ، يقوم به زعيم هو بعد اليوم مطارد في الصحراء ، ذلك المجد القصير الذي سينطفىء عما قريب مثل صاروخ ، على سدّ مفرزة « اتار » السيارة • ويعجبون بعد لتلك السورات الجنونية •

ومع ذلك فان قصة المأمون كانت قصة كثيرين غيره من

العرب • فلقد هرم • وعندما يهرم المرء يروح يتأمل • هكذا يكتشف ذات مساء انه خان ربّ الاسلام وانه وسخّ يده بوضعها في يد النصارى خاتماً مقايضة خسر فيها كل شيء •

في الواقع ما قيمة الشعير والسلام عنده ؟

محارب سقط وغدا راعياً ، وها هو الآن يتذكر أنه سبق وقطن الصحراء ، حيث كانت كل ثنية من ثنايا الرمل غنية بالاخطار التي تواريها ، حيث العسكرة المتقدمة في الليل توفد ، طليعتها ، حراساً ساهرين ، حيث الانباء التي تروي تحركات الأعداء تجعل القلوب تخفق حول النيران الليلية • يتذكر نكهة عرض البحر التي اذا ما تذوقها الانسان مرة لم يعد لينساها ابدا •

وها هو اليوم تيّاه دون مجد في متاه أعيد اليه السلام وأفرغ من كل امتياز • اليوم فقط غدت الصحراء صحراء •

★★★

الضباط الذين ذبحهم ، لعله كان يجلّهم • لكن حب الله يعلوهم •

« ليلة سعيدة ، ايها المأمون .

ـ ليحفظك الله ! »

الضباط ملتفون بأغطيتهم ، منطرحون على الرمل ، كما على طوف ، وجهاً الى الكواكب . هذي جميع النجوم تدور رويداً ، سماء بأسرها تعيّن الوقت . هوذا القمر ينحني نحو الرمال ، وقد أعيد الى العدم ، بفضل حكمته تعالى . عما قريب ينام النصارى . بضع دقائق بعد وتلتمع النجوم وحدها . حينئذ ، لكي تعود القبائل المزندقة فتستقر في مجدها الماضي ، حينئذ ، لكي تستأنف تلك المطاردات التي وحدها تجعل الرمال تتألق ، ستكفي الصيحة الضعيفة من هؤلاء النصارى الذين سيغرقونهم في سباتهم نفسه ... بضع ثوان أيضا ويولد ، مما لا يعوَّض ، عالم ... ويذبحون الملازمين الصبّاح النائمين .

— ٥ —

في جوبي ، دعاني اليوم كمال وأخوه معان ، وها أنا أشرب الشاي تحت خيمتهما . معان ينظر اليّ صامتا ، يلثّم شفتيه الوشاح الازرق ، ويحتفظ بحذر وحشي . كمال وحده يكلمني ويقوم

بالتشريفات :

« خيمتي ، ابلي ، نسائي ، عبيدي هم لك • »

معان ينحني نحو اخيه ، دون ان ينقل عينيه عني ، يلفظ بضع كلمات ، ثم يعود فيلج صمته •

« ماذا يقول ؟

ـ يقول : « بوتّاتو سرق الف جمل من الرقيبات • »

هذا النقيب بوتّاتو ، الضابط في هجانة مفرز « أتار » ، لم أكن أعرفه • ولكني أعرف اسطورته الكبيرة عبر المعاربة • فهم يتحدثون عنه بغضب ، انما كما عن اله من الآلهة • حضوره يمنح الرمل ثمنه • ولقد برز اليوم أيضا ، دون أن يعرف كيف ، في مؤخرة الغزوة التي كانت تزحف صوب الجنوب ، سارقاً ابلهم بالمئات ملزماً اياهم ، بغية انقاذ كنوزهم التي كانوا يظنونها في مأمن . بالتحوّل ضده • والآن ، وقد أنقذ « أتار » بظهوره ذاك الذي يشبه ظهور الملاك ، وبعد أن ضرب خيام معسكره فوق نجد كلسي مرتفع ، لبث هناك قائما مثل رهينة للاغتنام ، وصيته

من الانتشار بحيث يجبر القبائل على الشروع في الزحف صوب حسامه .

معان ينظر الي بمزيد من القساوة ويتكلم أيضا .

« ماذا يقول ؟

ــ يقول : « سنشن غداً غزوة على بونتّافو . ثلاثمائة بندقية . »

كنت قد توقعت جيداً حدوث شيء ما .

هذه الابل التي يوردونها البئر منذ ثلاثة ايام ، هذه المداولات،تلك الحميّة، يبدو وكأنهم يجهّزون شراعاً غير منظور. وان ريح البحر التي سوف تحمله بدأت تهب . بسبب بونتّافو ، كل خطوة نحو الجنوب تغدو خطوة مثقلة بالمجد . ولم أعد أعرف أن أميّز بين ما تحتويه مثل هذه الانطلاقات من حقد أو حب .

انه لمن الأبّهة بمكان أن يكون للانسان في العالم خصم من هذا الوزن . فحيثما برز طوت القبائل القريبة خيامها ، جمعت ابلها وفرت ، مرتعدة ، لالتقائه وجهاً لوجه ، ولكن أقصى القبائل

مصابة بالدوار نفسه الذي يصيب المتيَّم • أفرادها ينتزعون انفسهم انتزاعا من طمأنينة الخيام ، من عناق النساء ، من النوم الهانىء ، يتبينون أن لا شيء في العالم يوازي ، غب شهرين من السير المنهمك نحو الجنوب ، من الظمأ المحرق والتربّص القرفصاء تحت السافيات ، الانقضاض ، فجأة ، عند الفجر ، على مفرزة « أتار » السيارة وذبح النقيب بونّافو ، هناك ، انشاء الله •

« بونّافو قوي » ، اعترف لي كمال •

بت الآن أعرف سرهم • مثل اولئك الرجال الذين يشتهون امرأة ، يحلمون على رسل خطوتها الخليّة المتنزهة ، ويتقلبون طوال الليل ، مجرّحين ، متحرّقين بالنزهة الخلية التي تواصلها في احلامهم ، هكذا وقع خطوة بونّافو النائية يقض مضاجعهم • فلقد صدّ ، هذا النصراني الذي في ثياب مغربي ، الغزوات الموجهة ضده ، على رأس المائتين من قراصنته المغاربة ، وتسلل الى المناطق العاصية ، هناك حيث كان في امكان الأخير من رجاله وقد تحرر من القيود الفرنسية ان يستيقظ من رقّه ، بمنأى عن العقاب ، ويضحّي به لربه على الالواح الحجرية ، هناك حيث يحول صيته

وحده دونهم ، حيث ضعفه نفسه يرعبهم . وها هوذا تلك الليلة ، في صميم سباتهم الابح ، يمر ويسر غير عابىء ، وخطوته ترن حتى في قلب الصحراء .

ويتأمل معان ، جامداً ابداً في قاع الخيمة ، مثل محفورة نافرة من مرو أزرق . عيناه وحدهما تبرقان ، وخنجره الفضي الذي لم يعد لعبة . خنجره الذي أبدله منذ ما انضم الى الغزوة ! انه يشعر بنبله كما لم يشعر به أبداً ، ويسحقني باحتقاره ، لانه سيصعد نحو بوتّافو ، لانه سيبدأ مسيره ، عند الفجر ، يدفعه حقد له جميع دلائل الحب .

مرة اخرى ينحني نحو أخيه ، يتكلم بصوت خفيض ، وينظر اليّ :

« ماذا يقول ؟

ـ يقول انه سيطلق النار عليك اذا صادفك بعيدا عن الحصن .

ـ لماذا ؟

ـ يقول : « لديك طيارات ولاسلكي ، لديك بوتّافو ، ولكن ليس لديك الحقيقة • »

معان جامد في اغطيتـه الزرقاء ، التي كثنايا تمثال ، يدينني •

يقول: «انك تأكل الخسّ مثل الماعز، والخنزير مثل الخنازير• نساؤك بدون خفر يرين وجوههن » • لقد رآهن • يقول : « أنت لا تصلي أبداً • » يقول : « ماذا تنفعك طيّاراتك ولاسلكيّك وبوتّافو ، اذا كنت لا تملك الحقيقة ؟ »

★★★

أعجب بهذا المغربي الذي لا يدافع عن حريته ، لان الانسان دائماً حرّ في الصحراء ، لا يدافع عن كنوز منظورة ، لان الصحراء عارية ، وانما يدافع عن مملكة خفية • ان بوتّافو يقود في صمت أمواج الرمل مفرزته مثل قرصان قديم ، وبفضله لم يعد هذا المعسكر في رأس جوبي مأوى رعاة بطّالين • ان عاصفة بوتّافو تثقل جنبه ، وبسببه يرصّون الخيام ، مساء • الصمت ، في الجنوب ، لشد ما هو ممضّ : انه صمت بوتّافو ! ومعان ،

الصياد القديم ، يستمع اليه ماشياً في الريح •

عندما يعود بوتّافو الى فرنسا ، فان أعداءه سيبكونه بدل أن يبتهجوا لعودته ، كما لو كان ذهابه ينتزع من صحرائهم احد قطبيها ، من وجودهم قليلا من النفوذ ، وسيقولون لي :

« لماذا يذهب ، بوتّافوك ؟

ـ لا أعلم ••• »

لقد قامر بحياته ضد حياتهم ، وطوال سنين صنع قواعده من قواعدهم • نام ، ورأسه مسندة الى حجارهم • خلال المطاردة الأبدية عرف مثلهم ليالي كليالي التوراة ، صنعت من نجوم وريح• واذا به يدلّ ، بذهابه ، على أنه لم يكن يلعب لعبة جوهرية • يغادر الطاولة بخفة • والمغاربة الذين يتركهم يلعبون وحدهم يفقدون الثقة باحد معاني الحياة الذي لم يعد يلزم الرجال حتى لحمهم • انهم مع ذلك يريدون أن يؤمنوا به •

« بوتّافوك : سيعود •

ـ لا أعلم • »

سيعود ، يفكر المغاربة • ألعاب اوربا لم تعد لتستطيع ارضاءه ، ولا « البريدج » الذي يلعبه جنود الحامية ، ولا الترقية، ولا النساء • سيعود ، مسكوناً بنبله المفقود ، الى حيث كل خطوة تجعل القلب يخفق وكأنها خطوة نحو الحب • يكون قد ظن انه لا يحيا، هنا ، الا مغامرة وانه سيعود فيجد ، هنالك ، الجوهري، ولكنه سيكتشف باشمئزاز ان الثروات الحقيقية الوحيدة قد امتلكها هنا ، في الصحراء : فتون الرمال ، الليل ، هذا السكون ، وطن الريح والنجوم هذا • واذا عاد بونّافو ذات يوم ، فان الخبر سينتشر ، منذ الليلة الاولى ، بين المنشقّين • وسيعرف المغاربة انه ، في مكان ما من الصحراء ، ينام بين المائتين من قراصنته • عند ذاك يوردون رواحلهم البئر في الصمت • يعدّون مؤن الشعير • يتفحّصون بنادقهم • يدفعهم ذلك الحقد ، او ذلك الحب •

– ٦ –

« خبئني في طيارة الى مراكش ••• »

كل مساء ، في جوبي ، كان هذا العبد من عبيد المغاربة يتوجه اليّ بتوسله القصير • من ثمّ ، وبعد ان بذل ما في وسعه

ليعيش ، كان يجلس مصلّباً ساقيه ويعدّ لي الشاي . فهو بعد ذلك هانيء لمدة يوم ، وقد باح بسره ، كما يظن ، للطبيب الوحيد القادر على شفائه ، وتوسل الى الرب الوحيد القادر على انقاذه . وهو بعد ذلك يجترّ ، منحنياً فوق المغلاة ، صور حياته البسيطة ، أراضي مراكش السوداء ، بيوتها الوردية ، الخيرات الأولية التي هو مجرّد منها . لم يكن حاقدا عليّ لصمتي ، ولا لتأخري في منح الحياة : لم أكن رجلا شبيهاً به ، بل قوة تحرّك ، شيئاً ما مثل ريح مؤاتية ، وسوف تهبّ ذات يوم على مصيره .

مع ذلك ، فقد كنت أنا الطيار البسيط ، رئيس المرفأ الجوي لبضعة أشهر في رأس جوبي ، الذي كل ثروته كوخ مسند الى الحصن الأسباني ، وفي هذا الكوخ ، طست وابريق ماء مالح وسرير جد قصير ، كنت غير مخدوع بقدرتي .

« يا صديقي « برق » ، سوف نرى هذا ... »

جميع العبيد يسمّون « برق »، فكان يسمّى اذن « برق ». وبرغم اربع سنوات في الأسر ، لم يكن قد استسلم بعد : كان يتذكر أنه سبق وكان ملكاً .

« ماذا كنت تصنع ، يا برق ، في مرّاكش ؟ »

في مرّاكش ، حيث ما زالت تعيش ولا شك امرأته واولاده الثلاثة ، كان قد مارس مهنة رائعة :

« كنت قائد قطعان ، وكنت أدعى محمداً ! »

كان الزعماء ، هنالك ، يستدعونه :

« عندي ثيران للبيع ، يا محمد . اذهب الى الجبل واحضرَها . »

او يقولون :

« عندي ألف خروف في السهل ، قدها الى أعلى نحو المراعي . »

وكان برق ، المسلَّح بصولجان من زيتون ، حاكما لسفر خروجها . ولما كان وحده المسؤول عن شعب من النعاج ، يستمهل اكثرها رشاقة بسبب الحملان التي على وشك الولادة ، ويحثّ الكسالى قليلا ، فانه كان يمشي في ثقة الجميع وطاعتهم . وحده يعرف صوب أي أرض ميعادهم صاعدون ، وحده يقرأ طريقه في

الكواكب ، يثقله وعي لا تشاركه اياه النعاج ، فقد كان يقرر ، وحده ، في حكمته ، ساعة الطعام ، ساعة ورود النبعات ... ويقف ، في الليل ، وسط سباتهم ، وقد أخذته رأفة بكل هذا الضعف الجاهل ، وغاص في الصوف حتى الركبتين ، فيروح برق ، الطبيب ، النبي والملك ، يصلّي من اجل شعبه .

ذات يوم التقاه اعراب :

« تعال معنا نأت بسائمة في الجنوب »

كانوا قد جعلوه يمشي طويلا ، ولما انخرط ، بعد ثلاثة ايام ، في شعب اجوف ، على تخوم المناطق العاصية ، وضعوا يداً فقط على كتفه ، عمّدوه « برقاً » ، وباعوه .

عرفت عبيداً آخرين . كنت أمسي كل يوم أتناول الشاي تحت الخيام . أتمدّد هناك ، عاري القدمين ، على سجّادة الصوف الفاخر التي هي ترف الرحّل ، والتي يشيد عليها منزله لبضع ساعات ، وأروح أستمتع برحلة النهار . في الصحراء نشعر بانسياب الزمن . اننا ، تحت حرقة الشمس ، نمشي صوب المساء ، صوب تلك الريح المبتردة التي سوف، تستحمّ فيها الأعضاء وتغسل

العرق كله . تحت حرقة الشمس ، البهائم والبشر يتقدّمون ، بالتفة نفسها التي بها يتقدمون نحو الموت ، صوب ذلك الورد الكبير . هكذا ، ليست البطالة ابداً باطلة . وكل نهار يتبدّى جميلا مثل تلك الدروب التي تذهب الى البحر .

كنت أعرفهم ، أولئك العبيد . يدخلون الخيمة عندما يكون الشيخ قد أخرج من صندوق الكنوز الموقد والمغلاة والأقداح ، من ذلك الصندوق الذي أثقلته أمتعة لا معنى لها ، أقفال دون مفاتيح ، مزهريات دون زهور ، مرايا تساوي ثلاثة فلوس ، أسلحة عتيقة ، والتي بعد ان سقطت هكذا في عرض الرمل ، تذكّر بحطام سفينة غرقت .

عندئذ يعمّر العبد ، صامتا ، الموقد باعواد يابسة ، ينفخ على الجمرة ، يملأ المغلاة ويستخدم ، في جهود حريّة بفتاة صغيرة ، عضلات تستطيع استئصال أرزة . انه مسالم . لقد أخذ في اللعبة : عمل الشاي ، الاعتناء بالابل ، الأكل . تحت حرقة النهار ، السير نحو الليل ، وتحت جليد النجوم العارية تمنّي حرقة النهار . سعيدة هي بلاد الشمال التي تنظّم لها الفصول ، في الصيف ،

خرافة من ثلج ، وفي الشتاء خرافة من شمس ، ومحزنة البلاد الاستوائية حيث لا شيء يتغيَّر كبير تغيُّر في ذلك الأتون ، ولكن سعيدة هي ايضاً هذه الصحراء حيث النهار والليل يؤرجحان البشر ببساطة من رجاء الى آخر •

أحياناً يقرفص العبد الأسود أمام الباب ويستمتع بريح المساء • لم تعد الذكريات تستيقظ في جسم هذا الأسير المتثاقل • بالكاد يذكر ساعة اختطافه ، وتلك الضربات ، تلك الصيحات ، تلك الذرعان لرجال طرحوه في ليله الراهن• انه، منذ تلك الساعة، لا يني يغرق في سبات غريب ، محروما كالأعمى من أنهاره البطيئة في السنغال او من مدنه البيضاء التي في الجنوب المغربي ، محروماً كالأصمّ من الاصوات الأليفة • ليس هو شقياً ، هذا الاسود ، انه كسيح • وقع ذات يوم في مدار حياة البدو ، ارتبط بهجراتهم ، تقيَّد مدى الحياة بالمدارات التي يرسمونها في البادية ، فأي شيء مشترك يشده ، بعد الآن ، الى ماض ، الى بيت ، الى امرأة وأولاد هم ، بالنسبة اليه ، أموات كالأموات ؟

الرجال الذين عاشوا طويلا على حب كبير ، ثم حرموه ،

يتعبون احياناً من نبلهم المنعزل ، يتقرّبون بتواضع من الحياة ، ومن حب عادي يصنعون سعادتهم . لقد استعذبوا التنازل ، الاستسلام للعبودية والدخول في سلام الأشياء . العبد يصنع كبرياءه من جمرة السيّد .

« هاك ، خذ » ، يقول السيّد أحيانا للاسير .

انها الساعة التي يكون فيها السيّد طيباً مع العبد يسبب ذلك الغفران لجميع الأتعاب ، لجميع الحرق ، بسبب دخولهما ، جنباً الى جنب ، في الطراءة . ويمنحه قدحاً من الشاي . واذا بالأسير تحت وقر العرفان يقبّل ، لهذا القدح من الشاي ، ركبتي السيّد . لا يثقل العبد أبداً بالاغلال . لشدّ ما هو قليل الحاجة اليها . لشدّ ما هو وفيّ ! لشد ما ينكر متعقّلا الملك الاسود المخلوع الذي فيه : انه لم يعد سوى أسير سعيد .

ومع ذلك ، فسيأتي يوم يعتقونه . عندما يمسي اكثر هرماً من أن يسوى اما غذاءه واما كساءه ، فيمنحونه حرية لا حدّ لها . خلال ثلاثة ايام ، يعرض نفسه عبثاً من خيمة الى خمية ، كل يوم أضعف من يوم ، وعند نهاية اليوم الثالث ينطرح دائم الوداعة

على الرمل . رأيت هكذا بعضهم في جوبي يموتون عراة . وكان المغاربة يمرّون بهم في احتضارهم ، انما دون شراسه ، وصغار المغاربة يلعبون قرب الرمّة القاتمة ويركضون ، لدى كل فجر ، ليروا ، على سبيل اللعب ، اذا كانت ما تزال تتحرّك ، ولكنهم لا يضحكون من الخادم القديم . كان ذلك في سياق الطبيعة . كان ذلك كما لو انهم قالوا له : « لقد اشتغلت جيداً ، ولك حق بالرقاد ، فاذهب ونم . » اما هو ، فمتمدّد دائماً ، يعاني الجوع الذي ليس سوى دوار ، من دون الظلم الذي وحده يؤلم . كان يمتزج شيئاً فشيئاً بالأرض . الشمس أيبسته والأرض تلقّته . ثلاثون سنة شغل ، ثم هذا الحق بالرقاد وبالارض .

الاول الذي لقيته لم أسمعه يئن : لم يكن حاقداً على أحد ليئنّ منه. تبيّنت عنده نوعاً من الموافقة الغامضة ، موافقة الجبلي التائه ، وقد نفدت قواه ، فاستلقى على الثلج ، يلفّ نفسه باحلامه وبالثلج . لم يكن ألمه ما يروعني . فما كنت اعتقد بألمه قط . ولكن ، في موت انسان ، يموت عالم مجهول ، وكنت أسائل نفسي عن الصور التي كانت تغوص في ذاته . أية مزروعات من السنغال ، اية مدن بيضاء من الجنوب المغربي تغوص ، شيئاً

فشيئاً ، في النسيان • لم أستطع معرفة ما اذا كانت ، في هذه الكتلة السوداء ، تنطفىء مجرّد هموم بائسة : الشاي الواجب اعداده ، السائمة الواجب اقتيادها الى البئر ••• اذا كانت تنام نفس عبد ، أم ان الانسان وقد بعثته يقظة الذكريات ، هو الذي يموت في عظمته • كانت عظمة الجمجمة الصَّلبة أشبه عندي بصندوق الكنوز العتيق • لم اكن اعرف أي حرير ملوَّن ، اية صور أعياد ، أية رسوم دارسة هنا ، عديمة الفائدة في هذه البادية ، نجت فيه من الغرق • ذلك الصندوق ، كان هناك ، مقفلا ، وثقيلا • ما كنت اعرف أي شطر من العالم كان يتفكك في الانسان في أثناء سبات الايام الاخيرة الجبّار ، يتفكَّك في هذا الوعي وهذا اللحم الذي يستحيل شيئاً فشيئاً ليلا وجذراً •

« كنت قائد قطعان ، وكنت أدعى محمداً ••• »

كان برق، الاسير الاسود ، أول من صمد من الذين عرفتهم• ما كان شيئاً ان المغاربة انتهكوا حريته ، وجعلوه ، في يوم واحد ، أشد عرياً على الارض من وليد • ثمَّة عواصف من الله تجتاح هكذا ، في ساعة واحدة ، حصاد رجل • ولكن المغاربة كانوا

يهدّدونه في ما هو اعمق من ممتلكاته : في شخصه .

ولم يتنازل برق ، في حين أن كثيرين غيره من الأسرى كانوا تركوا بسهولة يموت فيهم قائد قطعان فقير ، يكدح طوال السنة ليكسب خبزه !

لم يستقرّ برق في العبودية كما نستقرّ ، وقد سئمنا الانتظار، في سعادة بخسة . لم يرد أن يصنع مسرّاته كعبد من حسنات سيد العبيد . كان يحتفظ لمحمد الغائب بهذا البيت الذي كان قد سكنه ذاك المحمد في صدره . ذلك البيت الحزين لكونه خاليا ، ولكنه البيت الذي لن يسكنه احد غيره . كان برق يشبه ذلك الحارس الذي ابيضّ شعره وبقي ، في عشب الماشي وضجر الصمت ، يموت من الوفاء .

ما كان يقول : « أنا محمد بن الحسين » ، ولكن : « كنت أدعى محمداً » حالماً باليوم الذي ينبعث فيه هذا الشخص المنسيّ ، طارداً ، بمجرد قيامته ، مظهر العبد . أحيانا ، في صمت الليل ، كانت تعاد اليه جميع ذكرياته ، في مثل اكتمال نشيد من أناشيد الطفولة . « في منتصف الليل ، يروي لنا مترجمنا المغربي ، في

منتصف الليل تكلّم على مرّاكش ، وبكى » • لا ينجو احد في العزلة من هذه الأوبات • كان الآخر يستيقظ فيه ، دونما انذار ، يتمطّى في أعضائه ذاتها ، يبحث عن المرأة لصق جنبه ، في هذه البادية حيث لم تقرب برق امرأة ابدا • لقد كان برق يستمع الى ماء العيون يغنّي هناك حيث ما انسابت أية عين ماء ابدا • وكان برق ، مغمض العينين ، يظن أنه يسكن بيتاً ابيض ، جالساً في كل ليلة تحت النجمة ذاتها ، هناك حيث يسكن الناس بيوتاً من الوبر ويطاردون الريح • كان برق يأتي اليّ مثقلا بلواعجه القديمة التي انتعشت على نحو غامض ، كما لو كان قطبها قريباً • كان يودّ ان يقول لي انه متأهب ، ان جميع لواعجه متأهبة ، وانه لم يبق عليه سوى العودة الى بلده لكي يوزعها • وتكفي اشارة مني • وكان برق يبتسم ، يدلّني على الحيلة ، لم أكن ولا ريب قد فكرت بها بعد :

« انه غدا موعد البريد ••• هل تخبئني في الطيارة الى أغادير •••

— يا لبرقا المسكين ! »

لاننا كنا نعيش في المناطق العاصية ، فكيف كنا لنستطيع مساعدته على الفرار ؟ اذ لكان المغاربة انتقموا ، في اليوم التالي ، والله اعرف بأية مذبحة ، للسرقة والاهانة . ولقد حاولت شراءه بمعونة ميكانيكيي المحطة ، لوبرغ ، مارشال وابغرال ، لكن المغاربة لا يقعون في كل يوم على اوربيين يبحثون عن عبد . فكانوا يستغلون الظرف .

« عشرون ألف فرنك .

ــ هل تهزأ بنا ؟

ــ أنظر الى هاتين الذراعين القويتين اللتين له ... »

وانقضت شهور على هذا النحو .



اخيراً انخفضت مطاليب المغاربة ورأيتني ، بمعونة اصدقاء في فرنسا كنت قد كتبت اليهم ، قادراً على شراء الصديق برق .

وكانت مفاوضات لا تنسى ، دامت ثمانية ايام ، أمضيناها جالسين ، في حلقة ، على الرمل ، خمسة عشر مغربياً وأنا . وكان

صديق لصاحب العبد هو صديق لي ايضاً ، وهو قاطع طرق يسمى زين ولد رحتّاري ، يساعدني سراً :

« بعه . فسوف تخسره على أي حال ، راح يقول له نزولا عند نصائحي . انه مريض . المرض لا يرى بادىء الامر ، ولكنه في الداخل . وذات يوم ، تراه ينفخه بغتة ، بعه بسرعة الى الفرنسي . »

كنت قد وعدت لصاً آخر يدعى راغي بجعالة اذا هو ساعدني على عقد الصفقة ، وراح راغي يغري البائع :

« سوف تشتري بهذه النقود جمالا وبنادق وخرطوشاً . انك تستطيع هكذا أن تغزو وتحارب الفرنسيين . هكذا سوف تأتي من « أتار » بثلاثة او أربعة عبدان جدد تماما . صرّف هذا الهرم . »

وباعوني برقا . اقفلت عليه باب كوخنا بالمفتاح ستة ايام لانه لو تجوّل في الخارج قبل أن تمرّ الطيارة لكان المغاربة استعادوه وباعوه ثانية في مكان آخر .

ولكني حرّرته من حال عبوديته . وكان ذلك ايضاً احتفالا مشهوداً . جاء الشيخ ، ومالك العبد السابق وابرهيم ، قائد جوبي . هؤلاء اللصوص الثلاثة الذين ما كانوا ليتوانوا عن دقّ عنقه على عشرين متراً من جدار الحصن ليس الا ليهزأوا مني ، قبّلوه بحرارة ، ووقّعوا عقداً رسمياً .

« انك الآن ولدنا . »

وكان كذلك ولدي حسب القانون .

وقبّل برق جميع آبائه .

عاش في كوخنا أسراً عذباً حتى ساعة الرحيل . وكان يحملنا على أن نصف له عشرين مرة في اليوم الرحلة السهلة: فسوف ينزل من الطيارة في أغادير ، ويسلّمونه ، في هذه المحطة ، تذكرة سيّارة نقل الى مرّاكش . كان برق يلعب الرجل الحرّ كما يلعب ولد دور المكتشف: هذا الانتقال الى الحياة ، سيارة النقل ، هذه الجماهير ، هذه المدن التي سيراها ...

جاء « لوبرغ » اليّ باسم « مارشال » و « ابغرال » .

يجب الا يموت برق جوعاً عند وصوله الى مرّاكش • اعطياني ألف فرنك له ، هكذا يستطيع برق ان يبحث عن عمل •

وكنت افكر في نسوة الاعمال الخيرية اللاتي « يصنعن البرّ » ، يهبن عشرين فرنكاً ويصررن على ايصال بها • اما لوبرغ، مارشال ، ابغرال ، ميكانيكيو الطيارات ، فكانوا يهبون الف فرنك ، فهم لا يصنعون البرّ ، ولا يصرون على عرفان • ما كانوا يتصرفون كذلك بداعي الشفقة ، مثل اولئك السيدات اللاتي يحلمن بالسعادة • كانوا يساهمون فقط في ان يعيدوا الى انسان كرامتــه كانسان • كانوا يعرفون جيّداً ، مثلما اعرف أنا نفسي ، انه بعد ما تزول نشوة العودة ، فان أول صديقة وفيّة ستهرع الى برق سوف تكون البؤس ، وانه سيشقى قبل ثلاثة أشهر في مكان ما ، على خطوط السكة الحديدية ، في اقتلاع العوارض•سوف يكون أقل سعادة منه في الصحراء عندنا• ولكنه كان يحق له أن يكون هو نفسه بين ذويه •

« هيا ، ايها الصديق الطيّب برق • اذهب وكن رجلا • »

الطيارة ترتعد ، على أهبة الانطلاق • انحنى برق مرة اخيرة

نحو وحشة رأس جوبي الشاسعة • امام الطيارة ، مائتا مغربي كانوا قد احتشدوا ليروا جيداً اية سحنة يتخذها عبد على ابواب الحياة • وكانوا ليستعيدوته ابعد من هذا المكان بقليل لو ان عطلا طرأ على الطيارة •

وكنا نومىء مودّعين وليدنا الجديد الذي في الخمسين من العمر ، يخالجنا بعض اضطراب لمجازفتنا به صوب العالم •

« الوداع ، يا برق !

ــ لا •

ــ كيف : لا ؟

ــ اني محمد بن الحسين • »

تلقينا أنباءه للمرة الاخيرة من العربي ، عبد الله ، الذي ساعد برق في أغادير نزولا عند طلبنا •

كانت سيارة النقل لا تسافر الا في المساء ، فكان برق يملك هكذا نهاراً • تشرّد بادىء الامر طويلا ، ودون ان يتفوّه بكلمة، في المدينة الصغيرة بحيث تبين عبد الله انه قلق وتأثّر :

« ما بك ؟

ـ لا شيء ... »

لم يكن برق ، وقد ذهب بعيداً في فرصته المفاجئة ، قد بدأ بعد يحسّ ببعثه . كان يشعر جيداً بسعادة صمّاء ، ولكنه لم يكن ثمة فارق ، ما خلا هذه السعادة ، بين برق الامس وبرق اليوم . ومع ذلك فسوف يقاسم بعد اليوم سائر البشر ، بالمساواة، هذه الشمس ، والحقّ بالجلوس هنا ، تحت عريشة المقهى العربي هذه . وجلس . طلب شاياً لعبد الله ولنفسه . كانت هذه اولى بوادره كسيّد . كان في استطاعة قدرته ان تغيّره تغييراً . ولكن الخادم سكب له الشاي دونما مفاجأة ، كما لو كانت البادرة عادية . لم يكن يحس بانه ، في سكبه هذا الشاي ، كان يمجّد انساناً حرّاً .

« لنذهب الى مكان آخر » ، قال برق .

وصعدا نحو « القصبة » التي تشرف على اغادير .

اتت نحوهما الراقصات البربريات الصغيرات . أبدين من

العذوبة الأليفة مقداراً جعل برقاً يظن انه على وشك الولادة للحياة جديداً : كنّ هنّ اللواتي ، عن غير علم ، يستقبلنه في الحياة . ولما أخذنه من يده ، قدّمن له الشاي اذن ، بلطف ، انما كما كنّ ليقدمنه الى اي انسان آخر . اراد برق ان يروي قيامته من الموت . ضحكن ضحكة هادئة . كنّ مسرورات له ، بما انه كان مسروراً . وأضاف ليفتنهن : « انا محمد بن الحسين . » ولكن ذلك لم يدهشهن قط . جميع الناس لهم اسماء ، وكثيرون يعودون من اماكن جد نائية ...

وجرّ عبد الله مرة اخرى صوب المدينة .

هام على وجهه امام الحوانيت اليهودية ، نظر الى البحر ، فكّر في انه يستطيع السير على رسله في اي اتجاه ، في انه حرّ ... ولكن هذه الحرية بدت له مرّة : لقد كشفت له خاصة الى اي حد تنقصه الروابط بالعالم .

آنئذ ، وفيما كان ولد يمرّ ، داعب برق خدّه برفق . ابتسم الولد . لم يكن ابن سيّد يتملّقونه . كان ولداً ضعيفاً منحه برق مداعبة . وكان يبتسم . وايقظ هذا الولد برقاً ، وتبيّن

برق نفسه اكثر اهمية بقليل فوق الارض ، بسبب ولد ضعيف كان مديناً له بأنه ابتسم .

« عمَّ تبحث ؟ سأل عبد الله .

ــ لا شيء » ، اجاب برق .

ولكن لمَّا وقع ، عند منعطف احد الشوارع ، على فريق اولاد يلعبون ، توقف . كان ذلك هنا . نظر اليهم في صمت . ثم، بعد ان تنحَّى صوب الحوانيت اليهودية ، عاد مثقل الذراعين بالهدايا . فسخط عبد الله :

« احمق ، احتفظ بنقودك ! »

ولكن برقاً لم يعد يصغي . بمهابة ، اشار الى كل منهم . وامتدت الايادي الصغيرة نحو اللُّعب والاساور والخفاف الذهبية . وكان كل ولد ، بعد ان يقبض جيداً على كنزه ، يفرّ ، متوحشاً .

وعلم ابناء اغادير الآخرين بالنبأ فهرعوا نحوه : فأنعلهم برق الخفاف الذهبية . وثمة اولاد آخرين ، في ضواحي اغادير ، بلغتهم

بدورهم تلك الشائعة ، فنهضوا وصعدوا يصيحون نحو الاله الاسود متمسّكين بثيابه العتيقة، ثياب الرقيق، مطالبين بنصيبهم. وأنفق برق ماله .

حسبه عبد الله « جنّ من فرح » . ولكنني لا اظن المسألة ، عند برق ، هي جعل الآخرين يقاسمونه فيضاً من الفرح .

لقد كان يمتلك ، بما انه كان حراً ، الخيرات الجوهرية ، الحق في حمل الناس على محبته ، في السير صوب الشمال او صوب الجنوب وكسب خبزه بعمله . فما نفع هذه النقود ... في حين انه كان يشعر، كما نشعر ، بجوع عميق ، بالحاجة لكي يكون انساناً بين الناس ، مرتبطاً بالناس . راقصات اغادير ابدين رقّة نحو برق المسكين ، ولكنه استأذنهن بالانصراف من غير مشقّة ، كما كان قد اتى . ما كنّ في حاجة اليه . هذا الخادم في الحانوت العربي ، هؤلاء المارّة في الشوارع ، جميعهم كانوا يحترمون فيه الرجل الحر ، يقاسمونه شمسهم بالسّواء ، ولكن احداً منهم لم يظهر كذلك انه بحاجة اليه . انه كان حراً ، ولكن الى ما لا حد ، حتى انه لم يعد يحس بوزنه على الارض . كان ينقصه هذا

الوزن للعلاقات الانسانية الذي يعيق المشي ، تلك الدموع ، تلك الوداعات ، تلك المعاتبات ، تلك الافراح ، جميع ما يدغده المرء او يمزّقه كلما بدرت عنه بادرة ، تلك الالف من الروابط التي تربطه بالآخرين وتعيده ثقيلا . ولكن ألف رجاء كان يثقل برقاً...

وكان ملك برق يبدأ في ذلك المجد من غروب الشمس فوق اغادير ، في تلك الطلاوة التي بقيت طويلا العذوبة الوحيدة التي ينتظر ، الحظيرة الوحيدة.ولما كانت ساعة الرحيل تدنو ، فقد كان برق يتقدّم ، مستحمّاً في مدّ الاطفال وجزرهم ، كما في الماضي بنعاجه ، ماخراً اولى سبله في العالم . وغداً يدخل في بؤس ذوويه، ويغدو مسؤولا عن عدد من الحيوات ربما يفوق ما تستطيع ذراعاه الهرمتان تغذيته ، ولكنه بات منذ الان يثقل هنا بوزنه الحقيقي . وكمثل كبير ملائكة خفيف جداً بحيث يعيش حياة البشر ، ولكنه غشّ فقطّب رصاصاً في زناره ، كان برق ينقل خطى عسيرة ، يشدّه الى الارض الف ولد بحاجة ماسة الى الخفاف المذهبة .

- ٧ -

هكذا هي الصحراء . قرآن ، ليس هو الا قاعدة للّعب ،

يحوّل رملها مملكة • في اعماق الصحراء التي نخالها خالية تمثّل مسرحية خفية تحرّك اهواء الناس ومشاعرهم • ليست حياة الصحراء الحقيقية مؤلفة من هجرات القبائل بحثاً عن عشبة تكلأ ، بل ومن اللّعبة التي تلعب في جنباتها ايضاً • اي فارق في المادة بين الرمل الخاضع والآخر ! او ليس الامر كذلك لجميع البشر ؟ حيال هذه الصحراء التي تغيّرت ملامحها اتذكّر لعب طفولتي ، الحديقة الجهماء والذهبية التي جعلناها آهلة بالآلهة ، المملكة غير المحدودة التي كنا نستلّها من هذا الكيلومتر المربع الذي ما كانت جنباته لتكتشف أبداً ، لتفتّش كلها • كنا نؤلف مدنية مقفلة للخطوات فيها نكهة وللاشياء معنى لم يكونا مسموحين في أية مدينة اخرى • ماذا يبقى ، عندما نعيش ، وقد غدونا رجالا ، في ظل نواميس اخرى ، من تلك الحديقة الملأى بظل الطفولة ، السحرية ، المثلجة ، المحرقة والتي عندما نعود اليها الآن ، نحاذي بشيء من اليأس ، جدار الحجارة الرمادية الصغير ، من الخارج ، مدهوشين اذ نجد ضمن مثل هذا السور الضيق ، اقليماً كنا قد خلقنا لانهائيته ، مدركين اننا سوف لن نعود فندخل هذا اللامنتهى ابداً لانه انما في اللّعب ، وليس في الحديقة ، كان

يجب ان ندخل •

ولكن لم يعد ثمة مناطق عاصية • ولم يعد ثمة سرّ في رأس جوبي ، في سيسنروس، في بورتو كانسادو ، في ساغة الحمراء ، في دورا سمارا ، في سمرّا • الآفاق التي هرعنا نحوها انطفأت واحداً بعد واحد ، صنو تلك الحشرات التي تفقد الوانها حينما تقع في شرك الأيادي الرطبة • ولكن الذي كان يغادرها لم يكن ضحية وهم • لم نكن مخطئين عندما كنا نركض وراء تلك الاكتشافات • ولا سلطان الف ليلة وليلة هو الآخر ، عندما كان يتتّبع اسلوباً هو من المرونة بحيث كانت جميلاته السبايا ينطفئن واحدة واحدة بين ذراعيه عند الفجر وقد فقدن، بعدما بالكاد لمسن، ذهب اجنحتهن• لقد اغتذينا بسحر الرمال ، وربما احتفر آخرون فيها آبار نفطهم واغتنوا ببضائعهم • ولكنهم يكونون قد وصلوا جدّ متأخرين • لأن كروم النخيل المحرّمة ، أو غبار الاصداف العذري ، انما الينا قد باحا بالأثمن مما يملكان : لم يكونا ليوفران سوى ساعة من الحرارة ، ونحن هم الذين عاشوها •



الصحراء ؟ لقد أعطيت مداناتها ذات يوم بالقلب . في اثناء غارة صوب الهند الصينية عام ١٩٣٥ ، ألفيتني في مصر ، على تخوم ليبيا ، وقد أخذت في الرمال كما في شرك ، وظننت انني هالك .
هذه هي القصة .



الفصل السابع

في قلب الصحراء

- ١ -

لما أشرفت على البحر المتوسط صادفت غيوماً منخفضة فهبطت الى عشرين متراً • كانت الامطار تنسحق على الزجاج والبحر يبدو داخناً • بذلت جهوداً كبيرة كي أتبين شيئاً ، فلا أصطدم بصاري سفينة •

اندريه بريفو ، الميكانيكي الذي برفقتي ، يشعل لي سجائر•

« قهوة ••• »

ويتوارى في مؤخرة الطيارة ليعود بالترمس وأشرب • من حين الى آخر ، اضغط قليلا على مقبض الغاز كي احافظ على ألفين

ومائة دورة • وأجيل نظري في أطري : كان أفراد رعيتي مطيعين ، كل ابرة في موضعها • القي نظرة على البحر الذي كان ، تحت المطر ، يصعّد أبخرة كحوض كبير ساخن • لو كنت في جومائية لأسفت لكونه « مجوّفاً » الى هذا الحد • لكني في طيارة • وسواء كان مجوفاً ام لا فلست استطيع الهبوط فيه • وكان ذلك يوفّر لي ، ولا أدري لماذا ، شعوراً غريباً بالاطمئنان • البحر يؤلف جزءاً من عالم ليس بعالمي • العطل ، هنا ، لا يعنيني • حتى ولا هو يهدّدني : اني لست معدّاً لمنازلة البحر •

بعد ساعة ونصف من الطيران كفّ المطر • الغيوم ما زالت منخفضة جداً ، ولكن النور بدأ يخترقها مثل ابتسامة كبيرة • وأمتّع الطرف في تلك العناصر التي تهيّء ببطء الطقس الجميل • تبينت فوق رأسي سماكة قليلة من القطن الأبيض ، فانعطفت كي أتفادى دفعة من المطر : لم يعد ضرورياً اختراقها في الصميم • واذا بي أمام اول مزق في الغيم •••

أحسست به دون ان أراه ، لاني لمحت ، أمامي ، على البحر ، ذيلا طويلا بلون البراري • ضرباً من واحة مشرقة الخضرة ،

عميقة ، شبيهة بواحة حقول الشعير التي كانت تقرص قلبي ، في الجنوب المغربي ، عندما كنت أؤوب من السنغال بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من الرمل . ههنا أيضاً أشعر بمداناتي اقليماً آهلا ، فأتذوّق مرحاً خفيفاً . واستدير نحو بريفو :

« خلصنا ، تحسّن الحال !

ـ أجل ، تحسن الحال ... »

تونس . فيما كانوا يملأون الصهريج بالوقود ، وقّعت أوراقاً . ولكن ، في لحظة مغادرتي المكتب ، سمعت مثل « هدّة » غطس . جلبة مثل تلك الجلبات الصماء ، دون صدى . تذكّرت أني اللحظة ذاتها سمعت جلبة مماثلة : انه انفجار في مرأب . لقد قتل رجلان من هذه السعلة الجشّاء . استدرت نحو الطريق الممتد طوال الحلبة : قليل من الغبار يرتفع ، سيارتان سريعتان تصادمتا ، وسمّرتا فجأة كما في الجليد . رجال يركضون نحوهما ، وآخرون يركضون نحونا :

« تلفنوا ... طبيب ... الرأس ... » أحسست انقباضاً في قلبي . ان القدر قد سدّد ، في ضياء المساء الهادىء ، ضربة

قاصمة ، فهدّ جمالا ، أو ذكاء ، أو حياة ... هكذا تغلغل القرصان في الصحراء وما من أحد سمع خطواتهم اللدنة فوق الرمل . كان ذلك ، في المغرب ، الجلبة القصيرة للغزوة . ثم همد كل شيء في الصمت المذهب . السلام ذاته ، الصمت ذاته ... بعضهم يتكلم قريباً مني عن صدع في الجمجمة . لا أريد ان أعرف شيئاً عن هذه الجبهة المشلولة الدامية . أدرت ظهري للطريق وبلغت طيارتي . ولكني احتفظت في قلبي بشعور نذير . هذه الجلبة سأعرفها عما قريب . عندما أكشط نقفتي السوداء بسرعة مائتين وسبعين كيلومتراً في الساعة ، ساتعرف الى السعلة الجشّاء ذاتها : الى « هدّة » القدر الذي كان في انتظارنا على الموعد .

وانطلقنا الى بنغازي .

— ٢ —

وسرنا . ما زال لدينا ساعتا نهار بعد . كنت قد تخلّيت عن نظّارتي السوداويين لمّا دنوت من طرابلس الغرب . الرمل يتذهّب . رباه ! لكم هو قاحل هذا الكوكب ! مرة اخرت بدت لي فيه الأنهار والاظلال ومساكن البشر نتيجة لمصادفات حادث

سعيد . وما أعظم نصيب الصخر والرمل منها !

ولكن كل هذا غريب عني . اني اعيش في ملعب الطيران . شعرت بدنوّ الليل حيث نعتكف كما في معبد . حيث ننفرد مع أسرار الطقوس الجوهرية ، في تأمل مبرم . كل هذا العالم الخاطىء بدأ يمّحي ، على وشك التلاشي . كل هذا المشهد ما زال يغتذي بالنور الاشقر ، ولكن بعض شيء فيه أخذ يتبخّر . وما كنت أعرف شيئاً ، قلت : لا شيء يضاهي هذه الساعة . والذين عانوا حبّ الطيران الذي لا يفسَّر يفهمونني جيداً .

تخليت اذن عن الشمس شيئاً فشيئاً ، تخليت عن المساحات الكبرى المذهّبة التي كانت لتستقبلني في حال طروء عطل ... تخليت عن الصوى التي من شأنها أن تهديني . تخليت عن أطياف الجبال فوق السماء التي كانت لتقيني العثار . دخلت في الليل . أبحرت . لم يعد لي سوى النجوم ...

ميتة العالم تلك تتمّ ببطء . ورويداً رويداً يروح النور ينقصني . الأرض والسماء تختلطان قليلا قليلا . هذه الأرض ترتفع وتبدو كأنها تنتشر مثل أبخرة . اولى النجوم ترتجف كما

في ماء أخضر . ويجب الانتظار طويلا بعد كي تتحوّل ماسات صلبة . عليّ الانتظار طويلا بعد كي أشاهد الألعاب الصامتة التي تقوم بها الشهب المتساقطة .

بريفو يجرّب المصابيح الثابتة ومصابيح الاغاثة . أحطنا زجاجها بالورق الأحمر .

« ورقة اخرى بعد ... »

فيضيف طبقة جديدة ، يمسّ وصلة كهربائية . النور لمّا يزل ساطعاً . يلقي وشاحاً ، كما عند المصور ، على صورة العالم الخارجي الشاحبة . سيتلف هذا اللّباب الخفيف الذي يظل أحياناً عالقاً بالأشياء في الليل . هذه الليلة تمّت . ولكنها ليست بعد الحياة الحقيقية . هلال قمر ما يزال صامداً . بريفو يغوص في المؤخرة ويعود بشطيرة .

رحت اتناول حبات عنقود عنب . لا أشعر بجوع ولا بعطش ، لا أشعر بأي تعب ، ويخيل اليّ انني استطيع قيادة الطيارة هكذا خلال عشر سنوات .

مات القمر .

بنغازي تعلن عن نفسها في الليل الاسود . بنغازي ترتاح في قاع ظلمة هي من العمق بحيث لا تزدان باية هالة. أبصرت المدينة لمَّا بلغتها . بحثت عن الحلبة ، ولكن ها هو فنارها الأحمر يشتعل . الاضواء تشطر مستطيلا أسود . أنعطف . ضوء كاشف مسلَّط صوب السماء يصعد مستقيماً كنافورة حريق ، يستدير ويخطّ على الحلبة طريق ذهب . انعطفت كي اتمكن ايضاً من رؤية العقبات . ان تجهيز هذه المحطة الليلي رائع . خفَّفت سرعتي وبدأت غوصي كما في الماء الأسود .

عندما هبطت ، كانت الساعة الثالثة والعشرين حسب التوقيت المحلي . سرت نحو الفنار . ضباط وجنود من أشد الناس تهذيباً ينتقلون من الظلّ الى ضوء الكاشف القاسي فيظهرون للرؤية مرة ويختفون اخرى . أخذوا أوراقي وبدأوا يزوّدون الطيارة بالوقود . سينتهي أمر مروري في عشرين دقيقة .

« انعطف ومرَّ فوقنا ، والاّ جهلنا اذا كان الاقلاع تمَّ كما يجب . »

الى الرحيل •

اسير على طريق الذهب تلك ، صوب منفذ لا عقبات فيه • طيارتي ، التي من طراز « سيمون » ، تقلع بعبئها قبل نهاية الحلبة بمسافة كبيرة • ضوء الكاشف يتبعني ويضايقني في الانعطاف • أخيراً تخلّى عني • لقد تنبّهوا الى انه يبهرني • استدرت نصف استدارة عمودياً ، لمّا صدمني ضوء الكاشف مجدّداً في وجهي ، ولكنه بالكاد لمسني حتى فرّ مني ووجّه ذؤابته الطويلة وجهة اخرى • شعرت بازاء هذه الترفّقات بمجاملة بالغة ، وها اناذا الآن انعطف أيضاً صوب الصحراء •

ارصاد باريس وتونس وبنغازي أنبأتني بريح خلفيّة سرعتها ثلاثون الى أربعين كيلومتراً في الساعة • أتّكل على سرعة ثلاثمائة كيلومتر ساعة في رحلتي • اتجهت صوب وسط الخط الذي يصل الاسكندرية بالقاهرة • هكذا اتفادى مناطق الشاطىء الممنوعة • وبرغم ما قد يطرأ عليّ من شطط مجهول ، فأني سأكون متمسكاً ، يمنة او يسرى ، باضواء هذه أو تلك من المدن أو ، على العموم ، بأية من أضواء

وادي النيل • سأطير ثلاث ساعات وعشرين دقيقة اذا لم يتغيَّر الهواء • ثلاث ساعات وخمساً وأربعين اذا ضعف • وبدأت التهم ألفاً وخمسين كيلومتراً من الصحراء •

لم يعد ثمة قمر • قار أسود اتَّسع حتى النجوم • سوف لن أقشع أي ضوء ، لن أفيد من أيَّة صوَّة • وبانعدام اللاسلكي، سوف لن اتلقى أية اشارة من الناس قبل النيل • لم أحاول مراقبة شيء آخر سوى ألأبكار وجهاز ضبط التوازن • لم اعد اهتم بشيء ، الا بفترة التنفس البطيئة التي يصعِّدها ، على لوحة الأداة القاتمة ، خطّ ضيِّق من الراديوم • وعندما يتنقَّل بريفو في جنبات الطيارة ، أصحِّح ، على مهل ، تغيُّرات التركيز • اني ارتفع الى ألفين ، هناك حيث الرياح مؤآتية ، كما أوعزوا اليّ • وأشعل ، على فترات متباعدة ، مصباحاً لاراقب الأطر ــ المحرِّك وهي ليست كلها مضيئة ، ولكني ، في معظم الوقت ، أوصد على نفسي جيداً في الليل الأسود ، بين مجرّاتي الصغيرة التي تنشر الضوء المعدنيّ ذاته الذي تنشره النجوم ، الضوء الازلي والخفيّ ذاته ، والتي تتكلم اللغةَ ذاتها • انا أيضاً أقرأ ، مثل الفلكيين ، كتاب الميكانيك السماوي• انا أيضاً أحسّ بنفسي مجتهداً ونقيَّاً•

كل شيء انطفأ في العالم الخارجي . هناك بريفو ، ينام بعد أن صمد طويلا ، فأتذوّق عزلتي تذوقاً أفضل . هناك هدير المحرك العذب وبازائي ، على لوحة الطيارة ، جميع هذه النجوم الهادئة الساكنة .

واتفكّر مع ذلك . لسنا نفيد البتّة من القمر ، كما أننا حرمنا اللاسلكي . ليس من رابط ، مهما كان متيناً ، يربطنا بعد بالعالم حتى نظلّ على خيط ضوء النيل . اننا خارج كل شيء ، ومحركنا وحده يعلّقنا مبقياً ايانا في هذا القار الأسود . اننا نجتاز وادي الخرافات الكبير الاسود . وادي الامتحان . هنا ، ليس من غوث قط . هنا ليس من غفران للأخطاء . اننا مسلمون الى رحمة الله .

دفقة نور تنسرب من لحمة في المولّد الكهربائي ، فأيقظ بريفو ليطفئها . بريفو يتحرك في الظل مثل دبّ ، يشخر ، يتقدّم . ينهمك فيما لست أدري أي مركّب من مناديل وورق أسود . اختفت دفقتي من النور . لقد أحدثت كسراً في هذا العالم . لم تكن قط من النوع ذاته الذي لنور الراديوم الشاحب والبعيد .

لقد كانت نور حانة ليلية ، وليس نور نجمة . لكنها كانت تبهرني خاصة وتمحو الأضواء الاخرى .

ثلاث ساعات طيران . ضياء يبدو لي ساطعاً ، ينبجس عن يميني . أنظر . خط طويل مضيء يتشبَّث بمصباح طرف الجانح الذي كان قد بقي غير مرئيٍّ بالنسبة اليّ . انه ضوء متقطّع ، تارة مديد وطوراً خافت : ها أنا ذا أدخل غيمة . انها هي التي تعكس مصباحي . كنت أوثر سماء صافية على مقربة من صواي . الجانح يشرق تحت هالة الضوء . الشعاع يستقرّ ، يثبَّت ويضيء ، ويؤلف هنالك باقة ورد . خضَّات عميقة تدفعني . اني أطير في مكان ما من هواء ركام غماميَّة لا أعرف سماكتها . وارتفع حتى الفين وخمسمائة دون ان أطفوا فوقه . هبطت الى ألف متر . باقة الورد ما تزال موجودة ، جامدة وأكثر فاكثر سطوعاً . حسناً . فليكن . ما هم . أفكّر بشيء آخر . سوف نرى ذلك جيداً عندما نخرج من المأزق . ولكني لا أحب هذا النور ، نور الفاسدة من الحانات .

وأحسب : « اني هنا أرقص قليلا ، وهذا طبيعي ، ولكني

تكبّدت ارتجاجات طوال طريقي برغم السماء الصافية والارتفاع . الهواء لم يهدأ بعد ، وعليّ ان اتجاوز سرعة ثلاثمائة كيلومتر ساعة » . على أي حال ، لا اعرف شيئاً بالضبط ، وسأحاول ان اهتدي الى طريقي عندما اخرج من الغيمة .

ونخرج منها . باقة الورد تلاشت فجأة . اختفاؤها هو الذي ينبئني بالحدث . وانظر الى الأمام وأبصر ، بقدر ما كان ابصار شيء ممكناً ، وادياً ضيقاً في السماء وجدار الركام الغمامية التالية . لقد عادت الباقة فاشتعلت من جديد .

لن أخرج اذن من هذا القار ، اللهم الاّ لبضع ثوان . بعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران بدأ يقلقني ، لأني اقترب من النيل لو تقدّمت كما أتصور . وربما استطعت رؤيته ، لو أسعفني الحظ قليلا ، عبر تلك الممرات ، ولكنها ليست كثيرة . لا أجرؤ على الهبوط بعد : فاذا كنت ، صدفة ، أقلّ سرعة مما أظن ، فاني ما زلت أحلّق فوق أراض مرتفعة .

ما زلت لا اشعر بعد بأي قلق ، لكني اخشى فقط المجازفة بخسارة زمن . بيد اني عيّنت حداً لطمأنينتي : اربع ساعات

وربع من الطيران • بعد هذه المدة ، وحتى في هواء عدم ، والهواء العدم غير محتمل ، فاني اكون قد تجاوزت وادي النيل • لما بلغت حواشي الغيمة ، قذفت الباقة أضواء خاطفة بتواتر متزايد ، ثم انطفأت دفعة واحدة • لا أحب هذه الاتصالات الرمزية بشياطين الليل •

وتطفو نجمة خضراء امامي ، ساطعة كفنار • أهي نجمة أم فنار ؟ لا أحب كذلك هذا السطوع الخارق ، كوكب المجوس هذا ، هذه الدعوة الخطيرة •

استفاق بريفو وأضاء الأطر ــ المحرّك • دفعته ، هو ومصباحه • لقد بلغت لتوّي تلك الثلمة بين غيمتين واغتنمتها لألقي نظرة الى ما دوني •

بريفو ينام من جديد •

ليس في الواقع ثمة ما ينظر •

اربع ساعات وخمس دقائق طيران • جاء بريفو وجلس قربي :

« كان علينا ان نبلغ القاهرة •••

ــ دون ريب •••

ــ هل هي نجمة هذه ، أم فنار ؟ »

خففّت قليلا من سرعة محركي ، وهذا دون شك ما أيقظ بريفو • انه حساس بجميع تغيرات ضوضاء الطيران • بدأت هبوطاً بطيئاً كي اندسّ تحت كتلة الغيوم •

استشرت خريطتي لتوّي • على أي حال اني دنوت من الشواطىء المشار اليها بحرف « ه » : لست معرّضاً لأي خطر • ما زلت أهبط وانعطف الى الشمال تماماً • هكذا تلقيت ، من نوافذي ، أضواء المدن • لقد تجاوزتها دون ريب ، وستظهر لي الى اليسار • أطير الآن تحت الركام الغمامية • ولكني أحاذي غيمة اخرى اكثر انحداراً عن يساري • انعطفت كي لا أدع نفسي أتورّط في شبكتها • غذذت السير من الشمال ، الى الشمال الشرقي •

هذه الغيمة تنحدر دون ريب وتحجب عني الأفق كله • لم

أعد لاجرؤ على الهبوط اكثر • بلغت معدّل ٤٠٠ من ارتفاعي ، ولكني اجهل، هنا ، الضغط• بريفو ينحني• أصيح :٩ : «سأنطلق حتى البحر ، وسأنتهي بالهبوط في البحر كي لا انسحق •••»

الواقع لا شيء يثبت لي اني ما جنحت بعد في البحر • الظلمة تحت هذه الغيمة هي ، بالضبط ، لا تخرق • ألزّ صوب نافذتي • أحاول ان أقرأ تحتي • أحاول ان اكتشف اضواء ، علامات • اني رجل ينقّب في الرماد • اني رجل يكدّ ليجد جمر الحياة في قاع موقد •

« فنار بحري ! »

رأينا في الوقت نفسه هذا الشرك المذبذب : يا للجنون ! أين كان هذا الفنار الشبح ، هذا الابتكار الذي من صنع الليل ؟ ذلك انه في الثانية ذاتها التي انحنينا فيها ، بريفو وانا ، لنفتّش عنه ، على ثلاث مائة متر تحت اجنحتنا ، اذ فجأة •••

« آه ! »

اظن جيداً اني لم انطق بغيرها •

أظن جيداً اني لم أحسّ بسوى صدع هائل زعزع عالمنا فوق أساساته . لقد صدمنا الارض بسرعة مائتين وسبعين كيلومتراً في الساعة .

ارجّح انني لم اتوقّع شيئاً آخر ، في الجزء المئوي من الثانية التي تلت ، سوى نجمة الانفجار الارجوانية الكبرى حيث سننصهر نحن الاثنين . لا بريفو ولا انا شعرنا باقل انفعال . لم اكن ألاحظ في ذاتي سوى انتظار لا حدود له ، انتظار تلك النجمة الوهّاجة حيث سنغيب في هذه الثانية بالذات . ولكن لم يكن ثمة نجمة ارجوانية . لقد حدث شبه هزّة أرضية اجتاحت حجرتنا ، مقتلعة النوافذ ، قاذفة بالواح الطيارة الى مائة متر ، مترعة حتى امعائنا بزمجرتها . كانت الطيارة ترتعد مثل مدية غرزت عن بعد في خشب صلب . وكنا مخضوضين بذلك الغضب . ثانية ، ثانيتان ... ما زالت الطيارة ترتجف وكنت انتظر بفارغ صبر مخيف ان تفجّرها مدّخراتها بالطاقة مثل قنبلة يدوية . على ان الهزّات الارضية توالت دون ان تؤدي الى الانفجار النهائي . وما كنت أفقه شيئاً من هذا العمل غير المنظور . ما كنت أفقه هذا الاهتزاز ، ولا هذا الغضب ، ولا هذه المهلة التي لا تنتهي ...

خمس ثوان ، ست ثوان ••• وفجأة ، تولاّنا احساس بالدوران، صدمة قذفت بسجائرنا أيضاً من النافذة ، حاطمة الجناح الأيمن ، ثم لا شيء • لا شيء سوى ثبات مثلّج • صحت ببريفو :

« اقفز بسرعة ! »

فصاح في الوقت نفسه :

« النار ! »

واذا بنا قد قذفنا من النافذة المنتزعة • كنا واقفين على مسافة عشرين متراً •

وأقول لبريفو :

« هل تأذّيت ؟ »

ويجيبني :

« ليس من أذى ! »

ولكنه كان يفرك ركبته •

فأقول له :

« تحسَّس نفسك ، تحرَّك ، اقسم لي انك لم تصب بكسر ... »

ويجيبني : « لا شيء ، انها مضخَّة الغوث ... » انا ، كنت أفكِّر في انه سينهار فجأة ، وقد شقَّ من رأسه حتى سرَّته ، ولكنه كان يردِّد لي ، شاخص العينين :

« انها مضخَّة الغوث !... »

انا ، كنت أفكر : ها هو قد جنَّ ، سيبدأ بالرقص ...

ولكنه حوَّل نظره اخيراً عن الطيارة التي كانت قد نجت من النار فنظر اليَّ واستطرد :

« لا شيء ، انها مضخَّة الغوث خدشتني في ركبتي . »

- ٣ -

ليس من تفسير لكوننا ما زلنا أحياء . تتبَّعت ، وفي يدي مصباح كهربائي ، آثار الطيارة على الأرض . على مسافة مائتين وخمسين متراً من تجمّدها ، وجدنا حدائد ملوية وصفائح

ذرّات الرمل طوال ممرّها • وسنعلم ، عند طلوع النهار ، اننا صدمنا ، بالكاد ملامسة ، منحدراً خفيفاً في أعلى نقفة خالية • عند نقطة التماسّ كان ثقب في الرمل يشبه ثقب سكّة الحرث • لقد اجتازت الطيارة طريقها زاحفة على بطنها ، دون ان تنقلب ، بغضب وبحركات ذنب زحّاف من الزحّافات • لقد زحفت بسرعة مائتين وسبعين كيلومتراً في الساعة • اننا مدينون بحياتنا الى تلك الحجارة السوداء الكروية التي تكرّ حرّة فوق الرمل والتي كوّنت لوحاً ذا كرى •

انتزع بريفو المكثّفات ليحول دون نشوب حريق فيما بعد بسبب تماسٍّ كهربائي • اسندت ظهري الى المحرّك وفكّرت: لعليّ تكبّدت ، في الارتفاع ، خلال اربع ساعات وربع ، هواء يهبّ بسرعة خمسين كيلومتراً في الساعة • لقد كنت في الحقيقة مخضوضاً • ولكن ، اذا كان الهواء قد تغيّر منذ ما بلّغت التنبؤات الجوية ، فاني أجهل كل شيء عن الاتجاه الذي اتخذه • عيّنت مكاني اذن ضمن مربّع زاويته أربعمائة كيلومتر •

أتى بريفو فجلس الى جانبي ، وقال لي : « غير اعتيادي

أن نكون أحياء ••• » لم اجبه ولم اشعر بأي فرح • لقد وردت على بالي فكرة صغيرة كانت تشق طريقها في رأسي وقد بدأت تقلقني قلقاً خفيفاً •

وأسأل بريفو أن يضيء مصباحه فيكون معلماً ، وانطلق مستقيماً امامي ومصباحي الكهربائي بيدي • أنظر الى الأرض باتنباه • أتقدّم بطيئاً ، أقوم بنصف دائرة واسعة ، أغيّر اتجاهي عدة مرات • واستمر أفتّش الأرض كما لو كنت أبحث عن خاتم أضيع • هكذا كنت للحظة خلت أبحث عن الجمر • ما زلت اتقدّم في الظلمة ، منحنياً على الاسطوانة البيضاء التي أنقلها • ـ انه هذا اكيداً ••• انه هذا اكيداً ••• وأعود فأصعد متمهّلاً نحو الطيارة • اجلس قرب حجرة القيادة واتفكّر • كنت ابحث عن سبب للأمل فما وجدته • ابحث عن اشارة تمنحها الحياة واذا بالحياة لا تشير الي قط •

« بريفو ، لم أر عشبة واحدة ••• »

بريفو يصمت ، لا ادري اذا كان فهمني • سنتكلم على ذلك ثانية عند ارتفاع الستار ، عندما يطلع النهار • اشعر فقط بوهن



كبير . أفكّر : « على اربعمائة كيلومتر تقريباً ، في الصحراء !.. »
وفجأة أقفز على قدمي :

« الماء ! »

خزّانات الوقود ، خزّانات الزيت بقرت . احتياطيّنا من الماء كذلك . الرمل شرب كل شيء . وجدنا نصف ليتر من القهوة في قعر ترمس محطوم ، ربع ليتر من الخمر الأبيض في قعر ترمس آخر . صفّينا هذين السائلين ومزجناهما . وجدنا ايضاً قليلا من العنب وبرتقالة . لكنني أحسب : « خلال خمس ساعات مسيرة . تحت الشمس ، في الصحراء ، نستهلك هذه ... »

استقرينا في الحجرة بانتظار النهار . اتمدّد لأنام . واستعرض في تلك الاثناء جردة مغامرتنا : اننا نجهل كل شيء عن موقعنا . ليس لدينا ليتر من سائل . اذا كنا واقعين تقريباً على الخط المستقيم ، فسيجدوننا بعد ثمانية ايام ، وهذا افضل ما يمكننا ان نرجوه ، وسيكون الآوان قد فات . واذا كنا جنحنا عن الخط المستقيم ، فسيجدوننا بعد ستة اشهر . لا نستطيع الاتكال على الطيارات : فهي ستبحث عنا على مسافة ثلاثة آلاف

كيلومتر .

« آه ! انها لخسارة ... يقول لي بريفو .

ـ لماذا ؟

ـ « كان يمكننا ان ننتهي من هذا دفعة واحدة !... »

ولكن يجب ألاّ نستسلم بمثل هذه السرعة . فاستعدنا ، بريفو وانا ، رباطة جأشنا . يجب ألاّ نفقد الامل ، مهما كان ضعيفاً ، بعملية انقاذ عجائبية عن طريق الجو . كذلك يجب ألاّ نبقى مكاننا ونخطىء ربما الواحة القريبة . سنمشي اليوم النهار بطوله . وسنعود الى طيارتنا ، وسندوّن ، قبل ان نرحل ، برنامجنا بأحرف كبيرة على الرمل .

تكوّرت اذن على نفسي وسأنام حتى الفجر . واني لجدّ سعيد بان أنام . ان تعبي يغلفني بوجود مضاعف . اني لست وحيداً في الصحراء ، سباتي النصفي مأهول بأصوات ، بذكريات ومسارّات مهموسة . لا اشعر بالظمأ بعد ، احسّ اني على ما يرام ، فاستسلم للسبات كما للمغامرة . الواقع يتقلّص أمام

الحلم ...

آه ! لشد ما كان الامر مختلفاً عندما طلع النهار !

- ٤ -

احببت الصحراء كثيراً . أمضيت ليالي في المناطق العاصية . استفقت في ذلك المدى الأشقر حيث وسمت الريح تثنّيها كما على البحر . انتظرت فيها الغوث نائماً تحت جناحي ، ولكن هذا لم يكن شبيهاً بما نحن عليه الآن .

مشينا الى منحدر التلال الحدباء . الارض مؤلفة من رمل تغطيه كله طبقة واحدة من الحصى اللمّاعة والسوداء . حتى ليقال حراشف من معدن ، وجميع القباب التي تحوطنا تلتمع كالدروع . لقد سقطنا في عالم معدني . اننا سجناء مشهد من حديد .

اجتزنا القمّة الاولى ، فطالعتنا ، أبعد ، قمة أخرى مماثلة ، لمّاعة وسوداء . سرنا نكشط بأقدامنا الأرض كي تترك خطاً هادياً يقودنا فيما بعد . تقدّمنا وجهاً للشمس . وخلافاً لكل منطق قررت الاتجاه رأساً الى الشرق ، لأن كل شيء كان يحملني على

الظن باني تجاوزت النيل : الارصاد ، زمن طيراني • ولكني قمت بمحاولة قصيرة صوب الغرب وشعرت بعدم ارتياح لم استطع تفسيره لنفسي • أرجأت عندئذ الغرب الى الغد • وضحيت مؤقتاً بالشمال مع انه يؤدي الى البحر • فبعد ثلاثة ايام ، عندما نقرر ، في نصف هذيان ، التخلّي نهائياً عن طيارتنا والسير الى الأمام حتى السقوط ، فانما الى الشرق سننطلق ايضاً • الى الشمال الشرقي بالأصح • وهذا ايضاً خلافاً لكل منطق كما هو ايضاً خلاف لكل رجاء • وسنكتشف ، بعد ان ننجو ، ان ايّ اتجاه آخر ما كان ليمكّننا من العودة لأننا ، صوب الشمال ، ما كنا لنستطيع بلوغ البحر بسبب الارهاق • ومهما بدا لي ذلك خلفاً ، فانه يخيل اليّ اليوم انني ، في حال انعدام دليل كان من شأنه ان يرجّح اختياري ، فقد اخترت هذا الاتجاه لسبب وحيد هو انه سبق وأنقذ صديقي غيوميه في الآند ، حيث بحثت عنه كثيراً • كان هذا الاتجاه قد غدا ، بالنسبة اليّ ، وبشكل غامض ، اتجاه الحياة •

بعد خمس ساعات من السير تغير المشهد • ساقية من الرمل بدت تسيل في واد ونحن نسلك قاع هذا الوادي • اننا نمشي

بخطى واسعة اذ علينا ان نمضي أبعد ما يمكن ونعود قبل الليل ، اذا لم نكتشف شيئاً . وبغتة توقّفت :

« بريفو .

ــ ماذا ؟

ــ الآثار ... »

منذ كم من الزمن كنا قد نسينا ان نترك وراءنا خطّاً ؟ اذا لم نعد فنعثر عليه ، فهذا يعني الموت .

قفلنا عائدين، لكننا جنحنا الى اليمين. وعندما نصبح بعيدين كفافاً ، فسنجنح عمودياً الى اتجاهنا الأول ، ونقفوا آثارنا حيثما كنا قد تركناها .

وما ان عقدنا هذا الخيط حتى عدنا فانطلقنا . الحرارة تشتدّ ومعها يولد السراب . على انه ما يزال بعد سراباً أوّلياً . بحيرات كبيرة تتألّق وتتلاشى عندما نقترب . قررنا اجتياز وادي الرمل وتسلّق أعلى القباب ارتفاعاً كي تتسنّى لنا رؤية الأفق . اننا نسير منذ ست ساعات . ولا بدّ أننا قطعنا ، بخطى واسعة ،

مجموع خمسة وثلاثين كيلومتراً • لقد بلغنا ذروة ذلك الكثيّب الأسود حيث جلسنا في الصمت • وادينا الذي من رمل يصبّ ، عند أقدامنا ، في صحراء رمل دون حجارة ، يحرق نورها الساطع الأبيض أعيننا • الخلاء مدى شرود النظر • انمّا يؤلّف تلاعب الأنوار في الافق سراباً بات اكثر اضطراباً • حصون ومآذن ، كتل هندسية عمودية الخطوط • وألاحظ أيضاً بقعة كبيرة سوداء تشبه النبات ، على أنّها مجلّلة بالأخيرة من تلك الغيوم التي تلاشت في النهار وستعود فتولد هذا المساء • ليست هي سوى ظل ركام غيمية •

لا فائدة من التقدّم أكثر ، فهذه المحاولة لا تقود الى أي مكان • يجب أن نعود الى طيارتنا ، هذا المعلم الأحمر والأبيض الذي ربّما تبيّنه الرفاق • وبالرغم من أنني لا أعلّق أملا البتة على هذه الأبحاث ، فانها تبدو لي وكأنّها الحظ الوحيد بالنجاة • ولكننا كنّا خاصة قد تركنا هنالك نقاط السائل الأخيرة التي نملكها ، والتي بات علينا حتماً ان نشربها • كان علينا أن نعود لنحيا • انّنا سجينا هذه الدائرة الحديدية : استقلالنا القصير عن العطش •

ولكن ما أصعب النكوص على الأعقاب عندما قد نكون متَّجهين صوب الحياة ! عبر السراب ، ربَّما يكون الأفق غنياً بالحواضر الحقيقية ، بأقنية الماء العذب وبالبراري • أعرف أني مصيب بالعودة • واشعر ، مع ذلك ، بأني أغرق عندما اتخذ هذا القرار الرهيب •

تمدّدنا قرب الطيارة • لقد اجتزنا أكثر من ستين كيلومتراً • لقد استهلكنا سوائلنا • لم تتعرَّف الى شيء صوب الشرق وليس من رفيق حلَّق فوق هذه الأرض • كم من الزمن سنصمد ؟ لقد بدأنا نشعر بظمأ شديد •••

أقمنا محرقة كبيرة مستعينين ببعض حطام الجانح المنسحق • وهيَّأنا الوقود وصفائح المانييزيوم الذي يعطي ألقاً أبيض قاسياً • انتظرنا حتى اشتَّد سواد الليل كي نضرم نارنا ••• ولكن أين هم الناس ؟

اللَّهب يتصاعد الآن • بخشوع المتعبِّد رحنا ننظر فنارنا يحترق في الصحراء • انَّنا ننظر رسالتنا الصامتة والمشعَّة تتألَّق في الليل • وأفكِّر في أنَّها اذا كانت تحمل نداء بات مؤثِّراً ،

فأتّها تحمل أيضاً حباً كثيراً • أتّنا نطلب أن نشرب ، ولكننا نطلب أيضاً ان تتّصل • لتشتعل نار أخرى في الليل • الناس وحدهم يملكون النار ، فليجيبونا • أرى عيني امرأتي • لن أرى شيئاً أكثر من هاتين العينين • انّهما تتساءلان • استعيد امامي عيون جميع الذين ربّما يحرصون عليّ • وهذه العيون تتساءل • مجلس بكامله من النظرات يلومني على صمتي • اني أجيب ! اني أجيب ! اني أجيب بجميع قواي ، لا أستطيع أن ألقي في الليل لهباً أكثر سطوعاً !

بذلت ما استطعت • بذلنا ما استطعنا : ستين كيلومتراً تقريباً دون شرب • والآن لن نشرب بعد • أهي غلطتنا اذا كنّا لا نستطيع الانتظار طويلا جداً ؟ لكنّا بقينا هناك ، طائعين ، نرضع مطراتنا • ولكن منذ الثانية التي نشقت فيها قاع المطرة المعدنية ، شرعت ساعة تسير • منذ الثانية التي امتصصت فيها آخر قطرة ، بدأت اسقط منحدراً • ما حيلتي اذا كان الزمن يحملني مثل نهر من الانهر ؟ بريفو يبكي • أربّت على كتفه • أقول له ، معزّياً : « اذا كنّا هالكين ، فليكن • »

يجيبني :

« اذا كنت تظنّ اني انما على نفسي أبكي ... »

ايه ! بكل تأكيد ، لقد اكتشفت هذه البداهة . ما من شيء لا يمكن احتماله . وسأتعلّم غداً ، وبعد غد ، انه ما من شيء في الحقيقة لا يمكن احتماله . لست أومن بالعذاب الاّ نصف ايمان . سبق وذكرت هذا لنفسي . ظننت ذات يوم أني أغرق ، سجيناً في حجرة طيّارة ، ولم أتعذّب كثيراً . ظننت أحياناً أنّي حطمت وجهي ولم يبدو لي هذا حدثاً مهمّاً قط . وهنا أيضاً لن أعرف الغصص بتاتاً . غداً أتعلّم ، بهذا الشأن ، أشياء أكثر غرابة أيضاً . والله يعلم ما اذا كنت ، برغم ظمأي الشديد ، قد تخلّيت عن اسماع الناس صوتي !...

« اذا كنت تظن اني انّما على نفسي ... »

أجل ، أجل ، ها هو ما لا يحتمل . كل مرة أعود فأرى هاتين العينين اللتين تنتظران ، أشعر بحرق . تأخذني الرغبة بغتة في أن أنهض وأركض مستقيماً امامي . هنالك من يستغيث ، انهم يغرقون !

انه انقلاب غريب في الأدوار ، ولكني دائماً ما فكرّت أنّ الأمر لكذلك . ومع هذا فقد كنت بحاجة الى بريفو كي اتأكد تمام التأكد . واذا ببريفو أيضاً لن يعرف قط هو الآخر أمام الموت ذلك الغصص الذي طبّقوا آذاننا به . ولكن ثمة شيء لا يتحمّله، ولا أنا أيضاً .

آه ! أقبل جيداً الاستسلام للرقاد ، للرقاد ليلة أو أعصر . اذا نمت فلن أعرف الفارق قطّ . ومن ثمّ ، يا له سلاماً ! لكن تلك الصرخات التي سيطلقونها هنالك ، ذلك اللهب العالي من اليأس ... لا أتحمّل صورته . لا أستطيع أن أكتف ذراعيّ أمام حوادث الغرق هذه ! كل ثانية صمت تغتال قليلا الذين أحبّهم . ويسري في أوصالي غضب كبير : لماذا هذه السلاسل التي تمنعني من الوصول في الوقت المعيّن واغاثة الذين يغرقون ؟ لماذا لا تحمل نارنا صرختنا الى آخر العالم ؟ صبراً !.. اننا قادمون !... اننا قادمون !... اننا المنقذون ! أستهلك المانييزيوم واحمرّت نارنا . لم يعد هنا سوى كومة جمر انحنينا فوقها ورحنا نصطليها . انتهت رسالتنا الكبيرة المضيئة . فماذا حرّكت في العالم ؟ ايه ! أعرف جيداً انها لم تحرّك شيئاً . كانت صلاة لم تعط ان تستجاب .

حسناً • سأمضي لأنام •

– ٥ –

عند الشروق جمعنا عن الجناحين ، بمسحنا اياهما بخرقة ، قعر قدح من الندى ممزوج بالدهان والزيت • كان يقزز النفس ، ولكنا شربناه • انه خير من لا شيء به نكون قد بللنا على الأقل شفاهنا • عقب هذه الوليمة ، قال لي بريفو :

« يوجد لحسن الحظ المسدس • »

أحسستني على حين بغتة عدوانياً ، واستدرت نحوه بعداوة شريرة • ما كنت لأكره شيئاً ، في هذه اللحظة ، مثل كرهي تفجراً عاطفياً • انني بحاجة شديدة لاعتبر أن كل شيء سهل • أنته سهل أن نولد • وسهل أن نكبر • وسهل أن نموت من العطش •

وشذرت بريفو على استعداد لأجرحه لو اقتضى الامر كي يصمت • ولكن بريفو كلمني بهدوء • لقد تعرض لمسألة صحية • تطرق الى هذا الموضوع كما لو كان قال

لي : « يجب أن نغسل أيدينا • » بالتالي نحن متفقان • سبق وتفكّرت أمس ، عندما أبصرت القراب الجلدي • كانت تفكّراتي حكيمة وليست مؤثّرة• الاجتماعي ليس مؤثّراً • وانما عجزنا عن طمأنة أولئك الذين نحن مسؤولون عنهم • وليس المسدس •

ما زالوا لا يبحثون عنّا ، أو ، بالأصح ، انّهم لا ريب يبحثون عنّا في مكان آخر • في الصحراء العربية على الأرجح • الواقع أننا لن نسمع أية طيّارة قبل الغد ، عندما نكون قد تخلّينا عن طيارتنا • ومرور تلك الطيّارة الوحيدة على مثل تلك المسافة عنّا ، يتركنا حينذاك لا مبالين •

نحن نقاط سوداء ممزوجةبألف نقطة سوداء فيالصحراء، ولسنا لنستطيع الزعم أنّنا سنبصر ، ولا شيء صحيح من التفكّرات التي سيعزونها اليّ عن هذا العذاب • لن أتكبّد أي عذاب • سيبدو المنقذون لي وكأنهم يحلّقون في كون آخر •

يجب خمسة عشر يوماً من البحث للعثور في الصحراء على طيّارة لا يعرف عنها شيء ، على ثلاثة آلاف كيلومتر تقريباً : انهم على الأرجح يبحثون عنّا من طرابلس الغرب الى العجم •

بيد أني ما زلت ، حتى اليوم ، احتفظ لنفسي بذلك الحظ الهزيل، بما أن ليس ثمة آخر • ومن ثم قرّرت ، وقد غيّرت خطتي ، ان انطلق وحدي مستكشفاً • سيعدّ بريفو ناراً ويشعلها في حال ان احدهم زارنا ، ولكنّ أحداً لن يزورنا •

انطلقت اذن ، جاهلا ما اذا كنت سأملك حتى القدرة على الرجوع • عاد الى بالي ما اعرفه عن صحراء ليبيا • تظل الرطوبة في تلك الصحراء ٤٠ ٪ عندما تهبط هنا الى ١٨ ٪ • وتتبخّر الحياة مثل بخار • يعلّم البدو والمسافرون وضبّاط المستعمرات أننا نستطيع الصمود تسع عشرة ساعة دون شرب • بعد عشرين ساعة تمتلىء العيون بالنور وتبدأ النهاية : ان سير العطش لصاعق •

ولكنّ ريح الشمال الشرقي هذه ، هذه الريح غير الطبيعية التي خدعتنا والتي ، خلافاً لكل توقّع ، سمّرتنا فوق هذه النقفة، تطيل الآن ولا ريب في أمدنا • ولكن أية مهلة ستمنحنا قبل ساعة الأنوار الأولى ؟

ذهبت اذن ، ولكن بدا لي أني أبحر على زورق في المحيط•

ومع ذلك ، فقد بدا لي ذلك المشهد ، بفضل الفجر ، أقلّ حزناً . وأسير بادىء الأمر ويداي في جيبي ، كنشّال .

مساء أمس نصبنا شراكاً عند مدخل جحر بعض الحيوانات الأرضية الخفيّة ، واستفاق القنّاص الذي فيّ . ذهبت اولا متفحّصاً الشراك : انّها خالية .

لن أشرب دماً اذن . وعلى الحقيقة ما كنت لأرجو ذلك .

واذ كنت لم أخيّب قط فاني ، على العكس ، محيّر . ممّا تعيش هذه الحيوانات ، في الصحراء ؟ انها « فيانق » دون شك ، أو ثعالب رمل ، وهي حيوانات صغيرة مفترسة بحجم الأرانب وتزيّنها آذان ضخمة .

لم أصمد أمام رغبتي وتقفّيت آثار احداها . اقتادتني الآثار نحو ساقية ضيّقة من الرمل حيث تنطبع جميع الخطى بوضوح . رحت امتّع الطرف بالسعفة الجميلة المؤلفه من ثلاث أصابع منفرجة بشكل مروحة . أتخيّل صديقي ثافزاً على مهل عند الفجر ، ولاحساً الندى عن الحجارة . هنا تتباعد الآثار : لقد ركض فينقي . هنا أتى رفيق فانضم اليه وخبّا جنباً الى جنب .

أشاهد هكذا بفرح غريب تلك النزهة الصباحية . أحب هذه الامارات للحياة . وأنسى قليلا أني ظمآن ...

وأخيراً ادنو من مستودعات مؤنة ثعالبي . انها تنبجس هنا مسح الرمل ، كل مائة متر ، شجيرة صغيرة يابسة بقامة قصعة الحساء مثقلة السوق ببزّاقات صغيرة مذهّبة . عند الفجر ينطلق الفينق للتزوّد بالطعام . واصطدم هنا بسرٍّ طبيعي عظيم .

فينقي لا يتوقف لدى جميع الشجيرات . فمنها ما هو موقر بالبزّاقات التي يأنفها . منها ما يدور حولها باحتراس واضح . ومنها ما يتعرّض لها ، انمّا دون أن يؤذيها . يأخذ عنها صدفتين أو ثلاثاً ، ثم يغيّر المطعم .

تراه يلعب لعبة من لا يريد اشباع جوعه دفعة واحدة ، كي يستمدّ لذّة اطول عمراً من نزهته الصباحية ؟ لا أظنّ ذلك . انّ لعبته توافق موافقة كبيرة خطّة لا بدّ منها . فلو ان الفينق أشبع نفسه من منتوجات الشجيرة الأولى ، لكان يعريّها ، في وقعتين أو ثلاث ، من حملها الحيّ . وهكذا ، من شجيرة الى شجيرة ، يقضي على وقرها الحي . ولكنّ الفينق يحاذر جيداً

اعاقة تناسلها . فهو لا يتوجّه ، من أجل وجبة واحدة ، الى حوالى مائة من هذه الكشش السمراء فحسب ، بل ولا يتناول أبداً صدفتين متجاورتين على الغصن ذاته . كل شيء يحصل وكأنّه كان يعي الخطر. فلو انه كان يشبع نفسه دون تحسّب، لما عاد ثمة بزّاق . واذا لم يعد ثمة بزاق ، فلن يعود ثمة فيانق .

وتقودني الآثار الى الجحر . الفينق هنا يسمعني دون ريب وقد أرهبته زمجرة خطوتي . وأقول له : « يا ثعلبي الصغير ، اني هالك ، ولكن الغريب أنّ هذا لم يمنعني من الاهتمام بمزاجك... »

وألبث هناك أحلم ويخيّل اليّ أنّنا تتكيّف حسب الحاجة. فكرة أنّه قد يموت بعد ثلاثين عاماً لا تعكّر افراح الانسان . ثلاثون عاماً ، ثلاثة ايام ... انها مسألة تتعلق بزاوية النظر الى الأشياء . ولكن يجب أن ننسى بعض الصور ...

والآن أتابع طريقي وقد أخذ شيء في داخلي ، مع التعب ، يتحوّل . السرابات ، اذا فقدت ، فسأبتكرها ...

« يا هو ! »



رفعت ذراعي وأنا أصرخ ، ولكنّ هذا الرجل الذي تحرّك لم يكن سوى صخرة سوداء • تعددّت الحياة في كل شيء في الصحراء • أردت أن أوقظ هذا البدويّ الذي كان نائماً واذا به يتحوّل الى جذع شجرة سوداء • جذع شجرة ؟ هذا الحضور يدهشني فأنحني • أريد أن أرفع غصناً مكسوراً : انّه من مرمر ! اعتدل وأنظر حولي • أبصر قطعاً أخرى من المرمر الأسود • غابة من قبل الطوفان تتكدّس سوقها المكسّرة فوق الأرض • وقد انهارت كما تنهار كاتدرائية ، لمائة الف عام خلت ، تحت اعصار من أعاصير سفر التكوين • والعصور دحرجت اليّ هذه الأجزاء من العمد الجبّارة المجلوّة مثل قطع من الصلب ، المتحجّرة المتحوّلة الى زجاج ، التي بلون المداد • ما زلت أميّز عقدة الغصون ، أبصر تلوّي الحياة ، أحصي حلقات الجذع • هذه الغابة التي كانت ملأى بالعصافير والموسيقى أصابتها لعنة فتحوّلت الى ملح • واحسّ أن هذا المشهد معاد لي • هذه الحيطان الفخمة الأشد سواداً من دروع التلال الحديدية ترفضني • ماذا أفعل هنا ، أنا ، الحيّ ، بين هذه المرمريّات المعصومة ؟ أنا الفاني، أنا ، الذي سوف ينحلّ جسمه ، ماذا أفعل هنا في الأبدية ؟

لقد اجتزت منذ أمس حوالى ثمانين كيلومتراً . لا بدّ أن دواري مردّه الى العطش . أو الى الشمس . انّها تسطع فوق سوق الاشجار التي تبدو وكأنّها مطلية بالزيت . تسطع فوق هذا اللّحاء الكوني . لم يعد هنا رمل ولا ثعالب . لم يعد هنا سوى سندان سحيق . وانا أمشي على هذا السندان . وأحسّ ، في رأسي ، الشمس ترّن . آه ! هنالك ...

« يا هو ! يا هو !

ــ ما من شيء هنالك ، لا تهتج ، انّه الهذيان . » أكلّم نفسي هكذا ، لأني بحاجة الى الاستنجاد بصوابي . انه لمن الصعب علي ان ارفض ما ارى . من الصعب عليَ ألاّ أهرع صوب تلك القافلة السائرة ... هناك ... أترى !..

« أبله ، تعرف جيداً انك أنت هو الذي يبتكرها ...

ــ اذن لا شيء في الدنيا حقيقي ... »

لا شيء حقيقي اذا لم يكن ذلك الصليب على عشرين كيلومتراً مني فوق الرابية . ذلك الصليب أو هذا الفنار ...

ولكنه ليس اتجاه البحر . اذن هو صليب . لقد درست الخريطة طوال الليل . كان عملي عبثاً ، بما أنّي أجهل موقعي . ولكني انحنيت فوق جميع العلامات التي كانت تنبئني بوجود انسان . وفي ناحية ما ، اكتشفت دائرة صغيرة يعلوها صليب مماثل . فرجعت الى التعريف وقرأت فيه : « مؤسسة دينية . » الى جانب الصليب رأيت نقطة سوداء . فرجعت أيضاً الى التعريف ، وقرأت فيه : « بئر دائمة . » فأصبت بصدمة شديدة في القلب وعدت أقرأ بصوت عال : « بئر دائمة ... بئر دائمة... بئر دائمة ! »

هل يوازي علي بابا وكنوزه بئراً دائمة ؟ أبعد قليلا لاحظت دائرتين بيضاويتين . فقرأت في التعريف : « بئر مؤقتة . » كان هذا أقل جمالا . ثم لم يعد ثمة شيء حول ذلك . لا شيء .

هذه هي مؤسستي الدينية ! لقد أقام الرهبان صليباً كبيراً على الرابية ليستدعوا اليهم الغرقى ! وما عليّ الا أن أسير نحوه. وما عليّ الا أن أركض نحو هؤلاء الدومينيكيين ...

ولكن ليس في ليبيا سوى أديرة قبطية .

ـ ••• نحو هؤلاء الدومينيكيين النجباء • فهم يملكون مطبخاً جميلا جديداً أحمر البلاط ، ومضخّة رائعة صدئة في فنائه • تحت المضخّة الصدئة ، تحت المضخّة الصدئة ، لا بدّ أنكم حذرتم ••• تحت المضخّة الصدئة انها البئر الدائمة ! آه ! سيكون عيد هنالك عندما سأقرع جرس الباب ، عندما سأشدّ حبل الجرس الكبير •••

ـ أبله ، انك تصف بيتاً من بيوت البروفانس حيث لا يوجد حتى الجرس •

ـ ••• عندما سأشد حبل الجرس الكبير ! سيرفع البوّاب ذراعيه الى السماء ويصيح بي : « انك مرسل من قبل الرّب ! » وسينادي جميع الرهبان • وسيهرعون • وسيحتفلون بي كما بولد فقير • وسيدفعونني صوب المطبخ • ويقولون لي : « ثانية ، ثانية ، يا ولدي ••• سنهرول حتى البئر الدائمة ••• »

« وأنا سأرتجف من الفرح ••• »

ولكن لا ، لا أريد أن أبكي ، ليس الآن لأنه لا يوجد صليب على الرابية •

وعود الغرب ليست سوى أكاذيب • فاستدرت تماماً نحو الشمال •

الشمال مليء ، على الأقل ، بنشيد البحر •

آه ! بعد اجتياز هذه الذروة ، سيترامى الأفق • ها هي أجمل حواضر الدنيا •

« تعرف جيداً أن هذا سراب ••• »

أعرف جيدا أنّ هذا سراب • أنا لا أجذع ، أنا ! ولكن اذا كان يروق لي ، أنا ، أن أغذّ السير نحو السراب ؟ اذا كان يروق لي ، أنا ، أن أرجو ؟ اذا كان يروق لي أن أحب تلك المدينة ذات الأفاريز والتي تزيّنها الشمس بكاملها ؟ اذا كان يروق لي أن أسير مستقيماً أمامي ، بخطى رشيقة ، بما أني لم أعد أشعر بتعبي ، بما اني سعيد ••• بريفو ومسدسه ، دعوني أضحك ! أفضّل نشوتي • اني سكران • اني أموت من العطش !

صحّاني الغسق من سكرتي • توقفت بغتة ، مذعوراً لشعوري بأنّي على مثل هذا البعد •

السراب يموت عند الغسق • الأفق تعرّى من مضخّته ، من قصوره ، من ثيابه الكهنوتية • انّه أفق صحراء •

« لقد أمعنت في البعد ! سيلتّفك الليل ، الافضل لك أن تنتظر النهار ، وغداً ستكون آثارك قد محيت ولن تعود في أي مكان •

ـ اذاً فلأستمرّ بعد في السير أمامي ••• ما النفع من النكوص ايضاً على أعقابي ؟ ما عدت أريد أن أقطع الطريق على نفسي هكذا عندما أكون على وشك أن أنفذ ، عندما أفتح ذراعيّ على البحر •••

ـ أين رأيت البحر ؟ انك لن تبلغه أبداً • ثلاثمائة كيلومتر تفصلك عنه دون شك • وبريفو يراقب قرب السيمون ! ولعلّ قافلة قد لمحته ••• »

نعم ، سأعود ، ولكنّي سأنادي الناس قبل ذلك :

« يا هو ! »

هذا الكوكب ، يا الهي ، انه مع ذلك مأهول •••

« يا هو ! يا ناس !... »

يبحّ صوتي . لم يعد لي صوت . استشعر الهزء من نفسي لصياحي هكذا ... أصيح مرة أيضاً :

« يا ناس ! »

لصوتي رنّة تفخيميّة ومدّعية .

وأقفل راجعاً .

بعد مسيرة ساعتين ، لمحت النيران التي كان بريفو يقذفها نحو السماء وقد هاله ظنّه أني ضعت . آه !... لست لأبالي بذلك قط ...

ساعة أخرى من السير بعد ... خمسمائة متر بعد . مائة متر بعد . خمسون بعد .

« آه ! »

توقفت مذهولا . الفرح سيغمر قلبي فأضمّ عنفه . كان بريفو ، وقد أناره الجمر ، يتحدث مع اثنين من العرب أسندا ظهريهما الى المحرّك . لم يبصرني بعد . انه لشديد الانهماك

بفرحه . آه ! ليتني انتظرت مثله ... لكنت الآن نجوت !
صحت فرحاً :

« يا هو ! »

فنقز البدويان ونظرا اليّ . بريفو يغادرهما ويتقدم وحده نحوي . أفتح ذراعيّ . بريفو يسندني من مرفقي ، كنت اذن على وشك أن أقع ؟ أقول له :

« اخيراً ، نجونا .

ـ ماذا ؟

ـ العربيان !

ـ أي عربيين ؟

ـ العربيان اللذان هنا ، معك !... »

ينظر الي بريفو باستغراب ، وأشعر بأنّه يبوح لي ، مرغماً ، بسر باهظ :

« ما من عرب قط ... »

لا ريب في انني ، هذه المرة ، سأبكي .

- ٦ -

نعيش هنا تسع عشرة ساعة دون ماء ، وماذا شربنا منذ مساء أمس ؟ بضع نقاط ندى عند الفجر ! لكن ريح الشمال ـ الشرقي ما زالت تهبّ فتؤخّر قليلا تبخّرنا • وهذه الشاشة ما زالت تتيح تراكم عمائر الغيم العالية في السماء • آه ! لو كانت هذه الغيوم تنحدر صوبنا ، لو كان يمكن ان تمطر ! ولكن السماء لا تمطر ابداً في الصحراء •

« بريفو ، لنقطع مظلّة بشكل مثلّثات ونثبت هذه القطع في الارض بحجارة • فاذا لم تتحول الريح ، فاننا عند الفجر نعصر أقمشتنا ونحصل على الندى في احد صهاريج الوقود • »

صففنا قطع القماش الست البيضاء تحت النجوم • وانتزع بريفو صهريجاً • لم يعد لنا الاّ ان ننتظر النهار •

اكتشف بريفو ، في حطام الطيارة ، برتقالة عجائبية • اقتسمناها • لقد أثّرتني تأثيراً عميقاً ، ومع ذلك ، فهي شيء يسير عندما نكون بحاجة الى عشرين ليتراً من الماء •

نظرت الى هذه الثمرة المضيئة متمدّداً قرب نارنا الليلية وقلت لنفسي : « الناس لا يعرفون ما هي البرتقالة ... » واقول لنفسي ايضاً : « اننا هالكون وللمرة الثانية لا يحرمني هذا اليقين لذّتي . نصف البرتقالة هذا الذي أشدّه في يدي يحمل اليّ أحد أعظم أفراح حياتي ... » أتمدّد على ظهري ، أمتصّ ثمرتي ، أحصي الشهب المتساقطة . ها أناذا ، لدقيقة واحدة ، في منتهى السعادة . واقول لنفسي ايضا : « لا نستطيع ان تتبيّن العالم الذي نعيش في نظامه اذا لم نحجر فيه انفسنا . » اليوم فقط أفهم سيجارة المحكوم بالموت وقدح الروم..ما كنت أتصوّره يقبل هذا البؤس . ومع ذلك فهو يستمدّ منه لذة كثيرة . تتصور هذا الرجل شجاعاً لو ابتسم . لكنه يبتسم لأنه يشرب الروم . ولا ندري أنه غيَّر رؤيته وأنه جعل ، من هذه الساعة الأخيرة ، حياة بشرية .

استقينا كمية ضخمة من الماء : لعلّها ليتران . انتهى العطش! لقد نجونا ، سنشرب !

نهلت من صهريجي مقدار كوب توتياء ، لكن هذا الماء ذو

لون مخضوضر جميل ، ومنذ الجرعة الأولى تبينت فيه طعماً من الفظاعه بحيث اني ، برغم الظمأ الذي يعذبني ، استعدت أنفاسي لحظة ، قبل أن انهي تلك الجرعة • مع أني مستعد لشرب الوحل ، لكن طعم هذا المعدن المسمَّم هو أقوى من ظمأي •

نظرت الى بريفو الذي يدور على نفسه وعيناه الى الأرض كما لو كان يبحث باتتباه عن شيء ما • وفجأة انحنى وتقيَّأ دون ان يتوقَّف عن الدوران • بعد ثلاثين ثانية ، جاء دوري • لقد اخذتني تشنُّجات من العنف بحيث رحت اتقيَّأ راكعاً ، واصابعي غارزة في الرمل • لم نكن نتكلم وبقينا ، طوال ربع ساعة ، مخضوضين هكذا ، لا نتقيَّأ الاّ قليلا من الصفراء •

انتهى الامر ، لم اعد أحس بسوى غثيان بعيد • ولكننا فقدنا أملنا الأخير • اجهل ما اذا كان اخفاقنا مرده الى طلاء ما في المظلة أم الى رواسب « تتراكلورور » الفحم المتبقية في الصهريج • لقد كان يلزمنا وعاء آخر ، أو أقمشة اخرى •

لنسرع ، اذن ! لقد طلع النهار • فلنرحل ! سنهجر هذه النقفة المشؤومة ونسير بخطى واسعة ، امامنا رأساً ، حتى

السقوط • انني اقتدي بغيوميه في الآند : افكّر به كثيراً منذ أمس • سأخرق التعليمات القاطعة في البقاء قرب حطام الطيارة • لن يبحثون عنا بعد هنا •

مرّة ثانية نكتشف أننا لسنا الغرقى • الغرقى ، هم أولئك الذين ينتظرون ! أولئك الذين يهدّدهم صمتنا • أولئك الذين مزّقتهم غلطة مقيتة • لا نستطيع ألاّ نهرع نحوهم • غيوميه ايضاً، عند عودته من الآند، روى لي انه كان يركض نحو الغرقى ! وهذه هي حقيقة كونية •

« لو كنت وحيداً في العالم ، يقول لي بريفو ، لرقدت • »

وسرنا الى الأمام من الشرق الى الشمال ـ الشرقي • اذا كنّا قد اجتزنا النيل فاننا ، في كل خطوة ، نغذّ أبعد في سماكة الصحراء العربية •

لم أعد اتذكّر ذلك النهار•لا أتذكر سوى تعجّلي • تعجّلي نحو أي شيء ، نحو سقوطي • اذكر ايضاً أني مشيت محدّقاً بالارض ، لقد قرفت من السراب • صحّحنا ، من وقت لآخر ، اتجاهنا بالبوصلة • واحياناً تمدّدنا ايضاً كي تتنفّس قليلا •

وطرحت كذلك في مكان ما مطاطتي التي كنت احتفظ بها لليل • لا اعرف اكثر من هذا شيئاً • ذكرياتي لا تتواصل الا مع نداوة المساء • أنا ايضاً كنت كالرمل ، وكل شيء ، فيّ ، قد امّحى •

عند غروب الشمس ، قرّرنا أن نخيم • أعرف جيداً أنه كان علينا أن نسير بعد : فهذه الليلة بدون ماء ستقضي علينا • لكننا حملنا معنا قطع شاشة المظلّة • اذا كان السم لا يأتي من الطلاء فقد تتمكّن ، صباح الغد ، من الشرب • علينا أن ننصب شراك الندى هذه ، مرّة اخرى ، تحت النجوم •

ولكن السماء ، الى الشمال ، نقيّة هذا المساء من الغيوم • لكن الهواء تغيّر طعمه • وتغيّرت ايضاً وجهته • بات لفح الصحراء الحار يلامسنا • انها يقظة الوحش ! احسّه يلحس ايادينا والوجه •

سوى اني لو مشيت بعد ، لما قطعت عشرة كيلومترات•فمنذ ثلاثة ايام ، ودون شرب ، اجتزت اكثرها من مائة وثمانين •••

ولكن ، في لحظة التوقّف :

« اقسم لك انها بحيرة ، يقول لي بريفو .

ــ انك مجنون !

ــ في هذه الساعة ، عند الغسق ، هل يمكن أن يكون هذا سراباً ؟ »

لم اجب بشيء . لقد تخلّيت ، منذ زمن بعيد ، عن تصديق عينيّ . ربما لم يكن هذا سراباً ، ولكنه اذن ابتكار من ابتكارات جنوننا . فكيف ما يزال بريفو يصدّق بعد ؟

بريفو يصرّ :

« انه على عشرين دقيقة ، سأذهب وأرى ... »

هذا العناد يغيظني :

« اذهب وانظر ، اذهب واستنشق الهواء ... هذا ممتاز للصحة. ولكن بحيرتك، فيما لو كانت موجودة ، فهي مالحة، اعلم ذلك جيداً . وسواء كانت مالحة أم لا ، فانها عند الشيطان . وعلاوة على كل ذلك فهي غير موجودة . »

كان بريفو قد ابتعد ، شاخص العينين . اني اعرفها هذه المغريات القاهرة ! وأفكّر : « هناك ثمة مروبصون ايضاً يمضون ويلقون بانفسهم رأساً تحت القاطرات . » اعرف أن بريفو لن يرجع . دوار الخلاء هذا سيأخذه ولن يعود باستطاعته الرجوع . وسيسقط غير بعيد . وسيموت من ناحيته وأنا من ناحيتي . ولكل هذا اهمية ضئيلة !...

لا أعتبر هذه اللاّمبالات التي عرتني فألا حسناً . احسست، وانا نصف غريق ، بالسلام نفسه . ولكني اغتنمه لأكتب رسالة تقرأ بعد موتي ، متمدداً على بطني فوق الحجارة . رسالتي جميلة جداً . لائقة جداً . فيها أغدق نصائح حكيمة . واشعر عند مراجعتها بلذّة زهو مبهمة . سيقولون عنها : « هذي رسالة ممتازة لما بعد الموت ! يا للخسارة أن يكون مات ! »

أودّ أيضاً أن أعرف أين أنا.احاول ان أكوّن لعاباً : منذ كم ساعة لم أبصق ؟ لم يعد عندي لعاب . اذا أبقيت فمي مطبقاً ، فان مادة دبقة تلحم شفتيّ . انها تنشّف وتكوّن في الخارج انتفاخة قاسية . بيد أني نجحت ايضاً في محاولاتي البلع وعبناي ما امتلأتا

بعد بالانوار . عندما أمنح هذا المشهد المضيء ، فسيعني ذلك انه لم يبق لي بعد في الحياة اكثر من ساعتين .

هبط الليل . القمر كبر منذ الليلة الماضية . لم يرجع بريفو . اني متمدّد على ظهري أنضج هذه البداهات . عثرت في نفسي على انطباع عتيق . سعيت في تحديده لنفسي . اني ... اني ... اني مبحر ! ذاهب الى اميركا الجنوبية ، وقد تمدّدت هكذا على الجسر الأعلى من السفينة . ذروة الصاري تترجّح طولاً وعرضاً، ببطء شديد ، بين النجوم . ينقص صار هنا ، ولكنني مع ذلك مبحر صوب ناحية لم تعد وقفاً على جهودي . تجار رقيق ألقوا بي ، موثقاً ، على متن سفينة .

افكر ببريفو الذي لم يرجع. لم اسمعه يتذمّر مرّة واحدة. هذا حسن جداً . لكان فوق طاقتي أن اسمعه يتشكّى . بريفو رجل .

آه ! ها هو ، على خمسمائة متر مني ، يلوّح بمصباحه ! لقد فقد آثاره ! ليس معي مصباح فأجيبه ، وأنهض ، وأصرخ ، لكنه لا يسمع ...

. مصباح آخر يضاء على مائتي متر من مصباحه ، فمصباح ثالث • يا الله ، انهم جماعة ويبحثون عني !

أصيح :

« يا هو ! »

ولكنهم لا يسمعونني •

المصابيح الثلاثة تواصل اشارات ندائها •

لست مجنوناً ، هذا المساء • انا بخير • انا بسلام • انظر باتنباه • هناك ثلاثة مصابيح على خمسمائة متر •

« يا هو ! »

لكنهم ما زالوا لا يسمعونني •

عندئذ تولاّني ذعر قصير • هو الوحيد الذي سأعرفه • آه ! استطيع بعد ان اركض : « انتظروا ••• انتظروا ••• » انهم سيقفلون عائدين ! انهم سيبتعدون ، باحثين في مكان آخر ، وانا سوف اسقط ! سوف اسقط على عتبة الحياة ، عندما كانت ثمة

أذرع لتستقبلني !•••

« يا هو ! يا هو !

ـ يا هو ! »

لقد سمعوني • اني اختنق ، اني اختنق ولكني ما زلت اركض•اركض باتجاه الصوت : « يا هو ! » أبصر بريفو واسقط•

« آه ! لمّا ابصرت جميع هذه المصابيح !•••

ـ اية مصابيح ؟ »

صحيح ، انه وحده •

هذه المرة لا اشعر بأي يأس ، وانما بغضب أصمّ •

« وبحيرتك ؟

ـ كانت تبتعد كلما تقدّمت • ومشيت نحوها خلال نصف ساعة • بعد نصف ساعة كانت قد اغتدت بعيدة جداً • رجعت ولكني واثق الآن من أنها بحيرة •••

ـ انت مجنون ، مجنون اطلاقاً • آه ! لماذا فعلت هذا !•••

لماذا ؟ »

ماذا فعل ؟ لماذا فعله ؟ سأبكي من الاستياء ، واجهل لماذا أنا مستاء . ويشرح لي بريفو بصوت يختنق :

« لشد ما كنت اريد أن اجد شراباً ... شفتاك بيضاوان جداً ! »

آه ! غضبي يهمد ... أمرّر يدي على جبهتي ، كما لو كنت استفيق ، وأحسّني حزيناً . واروي بتمهّل :

« رأيت ، كما أراك ، رأيت واضحاً ، دون خطأ ممكن ، ثلاثة انوار ... قلت لك اني رأيتها ، يا بريفو ! »

فيصمت بريفو اولا :

« اي نعم ، يعترف اخيراً ، ان حالنا تسوء . »



الأرض تشعشع بسرعة تحت هذا الجو الخالي من بخار الماء . بات الطقس بارداً جداً . أنهض وأمشي . ولكن ، سرعان

ما اعترتني رجفة لا تطاق • ان دمي الذي تبخّر يجري جرياً سيئاً جداً ويخترقني برد مجمّد ، ليس هو برد الليل فقط • فكّاي تصطكّان وجسمي كله يرتعد منتفضاً • لم يعد باستطاعتي استخدام مصباح كهربائي لفرط ما ترتعش به يدي • لم يسبق ان كنت حسّاساً بالبرد ، ومع هذا فسأموت برداً ، يا لها نتيجة غريبة من نتائج الظمأ !

طرحت ممطري في مكان ما وقد أرهقني حمله في القيظ • وراح الهواء يشتدّ رويداً رويداً • وأكتشف أن لا ملاذ في الصحراء قط • الصحراء ملساء مثل مرمر • لا تكوّن ظلاً في اثناء النهار ، وفي الليل تسلمك عارياً الى الريح • ما من شجرة ، ما من سياج ، ما من حجر كان ليأويني • الهواء يهجم عليّ مثل فرقة فرسان في ميدان مكشوف • أدور حول نفسي كي اتقيها • استلقي وانهض • وسواء كنت مستلقياً ام واقفاً فاني عرضة لهذا السوط من الجليد • لا استطيع العدو ، لم تعد لي قوى ، لا استطيع الفرار من القتلة واهوي راكعاً ، رأسي في بديّ ، تحت السيف !

وادرك ذلك بعد قليل • فانهض واسير امامي رأساً ، مرتجفاً دائماً ! اين انا ؟ آه ! لقد انطلقت لتو ّي ، واسمع بريفو ! نداءاته هي التي ايقظتني •••

اعود صوبه وما زال يخضّني هذا الارتجاف، هذه الحاذوقة التي تعرو الجسد كله • واقول لنفسي : « هذا ليس البرد • انه شيء آخر • انها النهاية • »

لقد جفّيت اكثر مما يجب • مشيت كثيراً ، أول امس ، وامس لمّا كنت سائراً وحدي •

يشق ّ علي أن اقضي برداً • اني لأفضّل سراباتي الداخلية • ذلك الصليب ، ذانك العربيان ، تلك المصابيح • بعد كل احتمال ، لقد بدأ هذا يهمّني • لا احب أن أجلد بالسياط كعبد •••

ها اناذا بعد جاثياً •

لقد حملنا معنا قليلا من العقاقير • مائة غرام من الأثير الصافي ، مائة غرام من الكحول عيار ٩٠ وزجاجة يود • احاول أن

اشرب جرعة أو جرعتين من الأثير الصافي • كما لو كنت اشرب مدى • ثم قليلا من الكحول عيار ٩٠ ، لكن هذا يطبّق حنجرتي•

احتفر حفرة في الرمل ، ارقد فيها ، واغطّي نفسي بالرمل • وجهي وحده يبرز • بريفو اكتشف اعواداً واشعل ناراً سرعان ما سينضب لهبها • بريفو يرفض أن يلحد نفسه تحت الرمل • انه يفضّل الانتظار ، انه مخطىء •

ما تزال حنجرتي منقبضة ، انها علامة سيئة ، ومع ذلك اشعر بتحسّن • أحسّني هادئاً • أحسّني هادئاً عبر كل رجاء • امضي في سفري رغماً عني ، موثقاً على جسر سفينة النخّاسين تحت النجوم • ولكن ، لعلّي لست تعيساً جداً •••

لم اعد اشعر بالبرد ، شرط ألاّ أحرّك عضلة من عضلاتي • عندئذ ، أنسى جسدي الهاجع تحت الرمل • سوف لن اتحرك بتاتاً ، وهكذا لن اتألم بعد أبداً • الواقع اني حقيقة أتألم قليلا جداً ••• وراء جميع هذه العذابات ، يكمن تآلف التعب والهذيان • ويتحول كل شيء الى كتاب صور ، الى حكاية من حكايا الجان على بعض شراسة ••• للحظة خلت ، كان الهواء

يطاردني وكنت ادور على نفسي مثل حيوان لأهرب منه • ثم شعرت بصعوبة في استنشاق الهواء : كانت ركبة تسحق صدري • ركبة • وكنت أكافح للتفلت من وقر الملاك • لم اكن ابداً وحيداً في الصحراء • والآن ، وقد عدت لا أومن بما يحوطني ، فاني انسحب الى بيتي ، اغمض عينيّ ولا اعود أحرّك هدباً • احسّ بجماع هذا السيل من الصور يحملني صوب حلم هادىء : ان الانهر تركد في سماكة البحر •

الوداع ، انتم يا من احببت • هي ليست غلطتي اذا كان الجسم البشري لا يصمد ثلاثة ايام دون ان يرتوي • لم اكن اظن نفسي هكذا سجين الينابيع • ما كنت لاهجس بقليل استقلالي الى هذا الحد • نظن أن الانسان يستطيع أن يمضي مستقيماً امامه • نظن الانسان حرّاً ••• لا نرى الحبل الذي يشدّه الى البئر ، الذي يشدّه ، مثل حبل السرّة ، الى بطن الأرض • فان هو خطا خطوة زيادة ، يموت •

ما خلا عذابك ، لست أأسف على شيء • بعد كل اعتبار ، فلقد نلت الحصّة الفضلى • واذا انا رجعت ، فسأعاود الكرّة من

جديد • اني بحاجة الى أن اعيش • وفي المدن ، لم يعد وجود للحياة البشرية •

الأمر هنا لا يتعلق بالطيران • الطيارة ليست غاية ، انها وسيلة • ليس من اجل الطيارة نخاطر بحياتنا • وليس من اجل محراثه ايضاً يحرث الفلاح • ولكن ، بالطيارة ، نغادر المدن ومحاسبيها ، ونعود فنجد حقيقة قروية •

اننا نقوم بعمل رجل ونعرف هموم رجل • اننا على اتصال بالريح ، بالنجوم ، بالليل ، بالرمل ، بالبحر • نتحايل على القوى الطبيعية • ننتظر الفجر كما ينتظر البستانيّ الربيع • ننتظر المحطة مثل ارض ميعاد ، ونبحث عن حقيقتنا في النجوم •

سوف لن اتشكّى • منذ ثلاثة ايام ، مشيت ، وعطشت ، وتبعت حلبات في الرمل ، جعلت من الندى رجائي • سعيت لادرك بني جنسي الذين كنت قد نسيت اين هم يقطنون على وجه البسيطة • وهذه انما هي هموم أحياء • ولا استطيع ألاّ اعتبارها اكثر أهميّة من تخيّر صالة رقص ، في المساء •

لم اعد افهم هؤلاء السكان في قطارات الضاحيه ، هؤلاء

الرجال الذين يظنون انفسهم رجالا ، ومع ذلك فهم قد تحوّلوا ، بواسطة ضغط لا يحسّونه ، مثل النمل ، الى غاية أعدّت لهم . بأي شيء يملأون ، عندما يكونون متفرّغين ، آحادهم اللا معقولة الوضيعة ؟

ذات مرة سمعتهم في روسيا يعزفون موسيقى لموزار في أحد المصانع . كتبت ذلك . فتلقيت مائتي رسالة شتم . لا أحقد على الذين يفضّلون الخوار . انهم لا يعرفون نشيداً آخر غيره . انما أحقد على القيّم على الخوار . لا أحبّ أن يفسدوا البشر .

أنا سعيد في مهنتي . أشعر بنفسي فلاّح المحطات . في قطار الضاحية ، أحسّ نزاعي على غير ما أحسّه هنا ! هنا ، بعد كل اعتبار ، يا له من ترف ...

لست آسفاً على شيء . لقد لعبت وخسرت . انّ هذا في منطق المهنة . ولكنني ، مهما يكن من أمر ، فلقد تنشّقته ، هواء البحر .

الذين ذاقوا طعمه مرة واحدة لا ينسون هذا الغذاء . أليس كذلك ، يا رفاقي ؟ المسألة ليست في أن نعيش عيشة خطرة . هذه

الصيغة دعيّة • مصارعو الثيران لا يروقون لي بتاتاً • ليس الخطر هو ما أحبّ • اني أعرف ما أحبّ • انها الحياة •

يخيّل اليّ أنّ السماء ستبيضّ • اخرج ذراعاً من الرمل • قطعة قماش على مرمى يدي ، فأتحسّسها ، ولكنها تظلّ ناشفة • لننتظر • الندى يسقط عند الفجر • ولكنّ الفجر يبيضّ دون أن يبلّل أقمشتنا • عندئذ تشوّش تفكّراتي قليلا وأسمعني أقول : « يوجد هنا قلب يابس ••• قلب يابس ••• قلب يابس لم يعد يعرف أن يصنع دموعاً !••• »

« لنرحل ، يا بريفو ! حنجرتانا ما طبّقتا بعد : يجب أن نمشي • »

— ٧ —

انّها تنفخ هذه الريح الغربية التي تيبس الانسان في تسع عشرة ساعة • بلعومي لم يطبّق بعد ، ولكنه قاس ومؤلم • اتبيّن فيه شيئاً يسلخ • عمّا قليل يبدأ ذلك السعال الذي وصفوه لي والذي انتظره • لساني يضايقني • ولكن الأخطر من هذا هو اني بتّ أبصر بقعاً ملتمعة • وعندما تتحول الى لهب ، فسأضّجع •

اننا نسير بسرعة • نغتنم نداوة الشروق • فنحن نعرف جيداً اننا عندما تشتد الشمس ، كما يقولون ، لن نعود نمشي • ففي الشمس الشارقة •••

لا يحق لنا أن نعرق • ولا أن ننتظر • هذه الطراوة ليست الا طراوة ثمانية عشرة بالمائة من الرطوبة • هذه الريح التي تهب تأتي من الصحراء وتحت هذه المداعبة الخادعة والطريئة ، يتبخر دمنا •

أكلنا قليلا من العنب في اليوم الاول • ومنذ ثلاثة أيام ، نصف برتقالة ونصف قطعة حلوى • فبأي لعاب كنا لنمضغ طعامنا ؟ ولكنني لا أشعر بأي جوع ، لا أشعر بسوى العطش • ويبدو لي من الآن فصاعداً أني سأعاني ، أكثر من معاناة العطش، نتائج العطش • هذه الحنجرة القاسية • هذا اللسان الذي من جفصين• هذا السلخ وهذا المذاق المخيف في الفم• هذه الأحاسيس انما هي جديدة علي • لا شك في أن الماء يشفيها ، ولكنني لا أملك ذكريات تضم هذه الأحاسيس لعلاجها • الظمأ يغدو أكثر فأكثر مرضاً من الامراض وأقل فأقل رغبة من الرغبات •

يخيَّل اليَّ أنَّ الينابيع والثمار باتت تمنحني صوراً أقلّ ايلاماً • وأنسى تألّق البرتقاله ، كما يبدو لي أني نسيت حناني • ولعلّي بدأت أنسى كل شيء •

جلسنا ، ولكن يجب أن ننطلق ثانية • اننّا تتخلّى عن المراحل الطويلة • بعد خمسمائة متر من السير ننهار تعباً • وأشعر بفرح كبير اذ استلقي • ولكن يجب أن نمضي ثانية •

المشهد يتغيَّر • الحجارة تتباعد • اننا نسير الآن على رمل • على كيلومترين أمامنا ، كثبان • على هذه الكثبان بعض بقع من نبات خفيض • أفضّل الرمل على الدرع الفولاذي • انها البيداء الشقراء • انها الصحراء • أظن اني تعرّفت اليها •••

الآن نرهق في مائتي متر •

« سنمشي ، مع هذا ، على الأقل حتى هذه الشجيرات • »

انه حد أقصى • سوف تتحقق في السيارة ، عندما سنقفوا آثارنا ، بعد ثمانية أيام ، باحثين عن الطيَّارة ، ان هذه المحاولة الأخيرة كانت ثمانين كيلومتراً • لقد اجتزت اذن حوالى مائتين

منها • كيف سأتابع ؟

أمس ، كنت أسير دون أمل • اليوم ، فقدت هذه الكلمات معناها • اليوم ، نحن نمشي لأننا نمشي • هكذا الثيران دون شك ، في الحرث • حلمت أمس بفراديس من اشجار البرتقال • ولكن لم يعد ثمة فراديس بالنسبة الي اليوم • ما عدت أومن بوجود البرتقال •

ما عدت اكتشف شيئاً في نفسي ، ما خلا جفافاً شديداً في القلب • سأسقط ولا أعرف اليأس بتاتاً • لست لأشعر حتى بحزن •

آسف لذلك : ان الهمّ ليبدو لي عذباً كالماء • يشفق المرء على نفسه ويرثو لحاله كصديق • ولكن لم يعد لي صديق في العالم •

عندما سيجدونني ، وقد احترقت عيناي ، سيتصورون أني ناديت كثيراً أو تألّمت كثيراً • ولكنّ الاندفاعات ، ولكن التأسفات ، ولكنّ التألم الرقيق ، انها هي أيضاً ثروات • وأنا لم تعد لي ثروات • الفتيات النضرات ، مساء أول غرامهنّ ، يشعرن

بالغمّ ويبكين • أنّ الغمّ مرتبط بارتعاشات الحياة • وأنا لم يعد بي غم •••

الصحراء ، هي أنا • لم أعد أكوّن لعاباً • ولكني لم أعد أكوّن ، كذلك ، الصور العذبة التي كان بامكاني أن انتحب نحوها • لقد أيبست الشمس فيّ نبع الدموع •

ومع ذلك ، ماذا أبصرت ؟ نسمة أمل مرّت عليّ مثل رعشة على صفحة البحر • ما هي العلامة التي اتت تنذر غريزتي قبل أن تلطم وعيي ؟ لم يتغيَّر شيء ، ومع هذا فقد تغيَّر كل شيء • هذا الشرشف من الرمل ، هذه النتوءات وهذه البقع الخفيفة من الخضرة لم تعد تؤلف مشهداً ، وانما مرسحاً • مرسح ما زال بعد خالياً ، ولكنه على كامل تأهّب • أنظر الى بريفو • انه مصاب بالدهشة نفسها التي تصيبني ، ولكنه لا يفهم هو أيضاً ماذا يشعر •

أقسم لك أنّه سيحدث شيء •••

أقسم لك أن الحياة دبّت في الصحراء • أقسم لكِ أن هذا الغياب ، أن هذا الصمت أصبحا بغتة مؤثّرين اكثر من ضوضاء

ساحة عامة •••

لقد نجونا ، توجد آثار في الرمل !•••

آه ! لقد فقدنا حلبة الجنس البشري ، كنَّا قد انفصلنا عن القبيلة ، كنَّا قد ألفينا أنفسنا وحيدين في العالم ، منسيين بسبب هجرة كونية ، واذا بنا نكتشف ، مطبوعة في الرمل ، أقدام الانسان العجائبية •

« هنا ، يا بريفو ، افترق رجلان •••

ـ هنا ، جمل أنيخ •••

ـ هنا ••• »

ومع ذلك ، فاننا لم ننقذ بعد • لا يكفينا أن ننتظر • بعد بضع ساعات لا يعود باستطاعتهم غوثنا • ان سير الظمأ ، بعد أن يبدأ السعال ، سريع جداً • وحنجرتنا •••

ولكني أومن بتلك القافلة التي تترجح في مكان ما ، في الصحراء •

لقد مشينا اذن بعد، وبغتة سمعت صياح ديك • كان غيئوميه قد قال لي : « حوالى النهاية ، كنت أسمع ديكة في الآند • كنت أسمع أيضاً السكك الحديدية ••• »

اتذكّر قصته في هذه اللحظة بالذات اذ يصيح الديك وأقول لنفسي : « عيناي هما اللتان خدعتاني في البداية • انها ولا شك نتيجة الظمأ • أذناي صمدتا صموداً أفضل ••• » ولكن بريفو اخذني من ذراعي :

« هل سمعت ؟

ـ ماذا ؟

ـ الديك !

ـ اذن ••• اذن ••• »

اذن ، بكل تأكيد ، أيها الأبله ، انها الحياة •••

اصابني تخيّل أخير : تخيّل ثلاثة كلاب تلاحق بعضها • بريفو ، الذي كان ينظر أيضاً ، لم ير شيئاً • ولكننا اثنان نمدّ أذرعتنا نحو هذا البدويّ • نحن اثنان نستنفد نحوه كل النفس

الذي في صدرينا . نحن اثنان نضحك من السعادة !...

ولكنّ صوتينا لا يبلغان ثلاثين متراً . أوتارنا الصوتية باتت يابسة . كنا نتحادث بصوت منخفض ، ولم نكن قد لاحظنا ذلك !

لكنّ هذا البدوي وجمله ، اللذين برزا لتوّهما من وراء الكثيّب ، ها هما يبتعدان وئيداً ، وئيداً . لعلّ هذا الرجل وحده . شيطان شرس أرانا اياه ويسحبه ...

ولم نعد نستطيع الركض .

عربي آخر يظهر ، جانبياً ، على الكثيّب . صيّحنا ، انما بخفوت . عندئذ ، لوّحنا بالأذرع وكنّا نشعر بأننا نملأ السماء بالاشارات السحيقة.لكن هذا البدوي ينظر دائماً نحو اليمين ...

وها هو ، على مهل ، ينعطف ربع انعطافة . في الثانية ذاتها التي يدير فيها وجهه صوبنا ، يكتمل كل شيء . في الثانية ذاتها التي ينظر فيها نحونا ، يكون قد محى فينا العطش ، الموت والسرابات . لقد بدأ ربع استدارة غيّرت وجه العالم . واتّه

بحركة من قامته الوحيدة،بنزهة من نظرته الوحيدة ، يخلق الحياة، ويبدو لي شبيهاً باله ...

انها معجزة ... هو يمشي صوبنا على الرمل كاله على البحر ...

نظر الينا العربي فقط . ضغط ، بيديه ، على أكتافنا وأطعناه. استلقينا . لم يعد ثمة عنصر ولا لغة ولا فوارق ... يوجد هذا البدوي الفقير من الرحّل الذي وضع على أكتافنا يدي كبير الملائكة .

انتظرنا ، جبهة في الرمل . والآن ، نحن نشرب منبطحين ، رأسنا في الحوض ، مثل عجول . البدويّ يرتعب لذلك ويجبرنا، في كل لحظة ، على التوقّف . ولكنه ، ما أن يدعنا ، حتى نعود فنغطّس كل وجهنا في الماء .

الماء !

ايها ماء ، ليس لك طعم ولا لون ولا عطر ، لا نستطيع أن نحدّدك . تتذوّقك دون أن نعرفك . أنت لست ضرورياً

للحياة : انك الحياة • تخترقنا بلذة لا تفسّر بالحواس قط • معك تدخل فينا جميع القوى التي تخلّينا عنها • بنعمتك تنفتّح فينا جميع ينابيع قلبنا التي نضبت •

انت أعظم ثروات العالم ، وانت الألطف أيضاً ، أنت يا من هو شديد النقاء في بطن الأرض • قد نموت على نبع ماء مانييزي• قد نموت على خطوتين من بحيرة ماء مالح • قد نموت بالرغم من ليتري ندى تتضمّن راسبة بعض الأملاح • انت لا تقبل بالخليط قط ، لا تقبل الفساد بتاتاً ، انك ألوهة مغمومة •

ولكنك تنشر فينا سعادة لا حدّ لبساطتها •

أمّا أنت الذي ينقذنا ، أيّها البدوي الذي من ليبيا ، فانك ستمحى، مع ذلك، من ذاكرتي الى الأبد• سوف لن أتذكّر وجهك أبداً • انك الانسان وتظهر لي بوجه جميع الناس معاً • لم تر وجهنا ابداً ومع ذلك عرفتنا • انك الأخ المحبوب ، وبدوري ، سوف أتعرّف اليك في جميع الناس •

تبدو لي متجلبباً بالنبل والرفق ، سيّداً كبيراً يملك السلطة

على اعطاء الماء • جميع اصدقائي ، جميع أعدائي يمشون فيك اليَّ ، ولم يعد لي عدوّ واحِد في العالم •

الفصل الثامن

البشر

— ١ —

مرة ايضاً حاذيت حقيقة لم أفهمها . خلتني هالكاً ، خلتني لمست قاع اليأس . وبعد أن قبلت بالتخلّي ، عرفت السلام . يبدو ان الانسان يكتشف نفسه في هذه الساعات ويغدو صديقاً لذاته . لا يعود ثمة ما يستطيع مضاهاة شعور الاكتفاء الذي يرضي فينا ما لا أدري أية حاجة جوهرية ما كنا نعرفها . اتصور أن بوتّافو ، الذي كان يرهق نفسه بالركض وراء الهواء ، قد عرف هذا الصفاء . غيوميه أيضاً ، في ثلجه . فكيف أنسى أنا نفسي اني وقد غطست في الرمل حتى القذال ، وذبحني العطش ذبحاً بطيئاً ،

شعرت بمثل هذا الدفء في القلب تحت وشاحي من النجوم ؟

كيف نشجّع فينا هذا النوع من الانعتاق ؟ كل ما في الانسان متناقض ، هذا نعرفه جيداً . نؤمّن الخبز لهذا من الناس كي تتيح له أن يبدع ، فينام . الفاتح المظفَّر يتراخى . السخيّ ، اذا أغنيناه ، غدا شحيحاً . ماذا تهمّنا المذاهب السياسية التي تدّعي انماء الناس اذا لم نعرف أولاً أي نوع من الناس ستنمي . من هو الذي سيولد ؟ نحن لسنا سائمة للعلف ، وظهور رجل مثل باسكال، فقير، له وزن أثقل ممّا لولادة بعض المجهولين المنعّمين.

الجوهري ، لا نعرف أن نستشفّه . كل واحد منّا عرف اكثر الأفراح دفئاً هناك حيث لا شيء كان ليعد بها . ولقد خلّفت لنا حنيناً من الشدّة بحيث نأسف حتى على بؤسنا ، اذا كان بؤسنا هو الذي أتاحها . لقد تذوّقنا جميعنا فتنة الذكريات السيّئة بالتقائنا رفاقاً .

ماذا نعرف أكثر من أن هناك أوضاعاً مجهولة تخصبنا ؟ أين تقيم حقيقة الانسان ؟

الحقيقة ، ليست هي اطلاقاً ما يبرهن . فاذا هي كانت في

هذه الأرض ، وليست في تلك ، فان أشجار البرتقال تنمّي جذوراً متينة وتثقل بالثمر . ان هذه الأرض هي حقيقة أشجار البرتقال . اذا كانت هذه الديانة ، هذه الثقافة ، هذا السلّم للقيم ، هذا الشكل من أشكال النشاط وليس غيره يمكّن الانسان من هذا التمام ، يعتق فيه سيّداً كبيراً كان يجهل نفسه ، فذاك أن هذا السلم للقيم ، هذه الثقافة ، هذا الشكل من أشكال النشاط هي حقيقة الانسان . المنطق ؟ فليتدبّر أمره كي يبرّر الحياة .

طوال هذا الكتاب ذكرت بضعة من الذين لبّوا ، على ما يبدو ، دعوة قاهرة ، من الذين اختاروا الصحراء او الخط مثلما كان آخرون ليختاروا الدير ، ولكني خنت غايتي اذا كنت قد بدوت أحثّكم على الاعجاب اولا بالرجال . ما يستحق الاعجاب أولا ، انما هو الأرض التي أسّستهم .

المواهب تلعب ولا شك دوراً . البعض يحجرون أنفسهم في حوانيتهم . آخرون يواصلون سبيلهم ، بشكل قاهر ، في اتجاه ضروري : اننا نعثر في تاريخ طفولتهم على نطفة الاندفاعات التي تفسّر مصيرهم . على أنّ التاريخ اذا قرىء بعد الآوان ، خدع .

هذه الاندفاعات نعود فنجدها عند الجميع تقريباً • جميعنا أصحاب حوانيت اكتشفوا ، ذات ليلة غريق أو حريق ، انّهم أكبر من أنفسهم • انهم لا يخطئون بتاتاً في نوعية اكتمالهم • هذا الحريق يظلّ ليلة حياتهم • ولكنّهم ، بسبب انعدام الفرص الجديدة ، انعدام الأرض المؤاتية ، انعدام دين متطلّب ، استسلموا للسبات دون أن يؤمنوا بعظمتهم الخاصة • أكيد أنّ المواهب تساعد الانسان على الانعتاق : ولكنه ضروري أيضاً اعتاق المواهب •

ليالي الطيران ، ليالي الصحراء ••• انها لمناسبات نادرة ، لا تتاح لجميع البشر • ومع هذا ، فعندما تحييها المناسبات ، تظهر جميعها الحاجات ذاتها • ولا ابتعد قط عن موضوعي اذا رويت ليلة من ليالي أسبانيا لقّنتني في الموضوع درساً • تكلّمت كثيراً عن بعض الناس ، وأودّ أن اتكلم على الجميع •

كان ذلك على جبهة مدريد التي كنت أزورها كمراسل صحفي • كنت اتعشّى ذلك المساء في قعر ملجأ سردابي ، على مائدة نقيب فتي •

- ٢ -

كنّا نتجاذب أطراف الحديث عندما رنّ جرس الهاتف • دار حوار طويل : انّه يتعلق بهجوم محلّي ينقل مقر القيادة أمره ، هجوم لا معقول ويائس عليه أن يستولي ، في تلك الضاحية العمالية ، على بضعة منازل حوّلت الى قلاع محصّنة بالأسمنت • النقيب يرفع كتفيه ويعود الينا : « الاولون ، يقول ، الذين سيظهرون من بيننا ••• » ثم يدفع بكأسين من الكونياك ، نحو رقيب موجود هنا ، ونحوي :

« ستخرج الأول ، معي ، يقول للرقيب • اشرب واذهب فنم • »

ذهب الرقيب لينام • انّنا عشرة أشخاص نسهر حول تلك الطاولة • كانت الاضاءة ، في تلك الحجرة المحكمة الاقفال التي لا ينسرب منها نور ، حادّة بحيث أني طرفت بعينيّ • لخمس دقائق خلت ، القيت نظرة عبر احدى الطوق • ولمّا كنت قد رفعت الخرقة التي تحجب الثغرة ، فقد ابصرت ، تحت ضوء القمر الذي كان ينشر هاوية ، أطلال منازل مسكونة • لمّا وضعت الخرقة

في مكانها خيّل الي أني أمسح ضوء القمر وكأنه دفقة زيت • واني احتفظ الآن في عينيّ بصورة حصون بحرية الاخضرار •

لا شك أن هؤلاء الجنود لن يعودوا ، ولكنهم يصمتون ، خفراً • فهذا الهجوم هو ضمن النظام • انهم يغترفون من مدّخر رجال • يغترفون من أهراء حبوب • يرمون حفنة حبوب للبذار •

ونشرب كونياكنا • الى يميني ، يتنازعون دورة شطرنج • الى يساري ، يتمازحون• أين أنا ؟ رجل ، نصف سكران ، يدخل• يداعب لحية كثّة ويدحرج علينا عينين رفيقتين • نظرته تزلق على الكونياك ، تتحوّل ، تعود الى الكونياك ، تنعطف ، متوسّلة ، نحو النقيب • النقيب يضحك ضحكة خافتة • الرجل يضحك أيضاً ، وقد لامسه الأمل • ضحكة خفيفة تكسب المشاهدين • الرقيب يبعد الزجاجة بتؤدة ، فتلعب نظرة الرجل دور اليأس ، وتبدأ هكذا لعبة صبيانية ، نوع من باليه صامتة كأنها ، عبر سماكة دخان السجاير وتلاشي الليل الأبيض وصورة الهجوم الوشيك ، أقرب الى حلم من الأحلام •

ونلعب ، معتكفين جيداً في الدفء داخل سفينتنا ، فيما

تتضاعف الانفجارات في الخارج شبيهة بتلاطم امواج البحر .

هؤلاء الرجال سيكشطون عمّا قريب من عرقهم ، من كحولهم من اوضار انتظارهم في مياه ليل الحرب المذيبة . أحسّهم على وشك أن يتطهّروا . ولكنهم يرقصون أيضاً بأقصى ما يستطيعون رقصها باليه المخمور والقنينة . يتابعونها أقصى ما يمكن متابعتها ، دورة الشطرنج تلك . انهم يعملون على ادامة الحياة بقدر ما يستطيعون . ولكنهم ضبطوا منبّهاً متسلطناً فوق رفٍّ لينبّههم . وهذا المنبّه سيرنّ اذن . حينذاك سينتصب هؤلاء الرجال ، يتمطّون ويزرّرون مناطقهم . ويسحب الرقيب عندئذ مسدّسه . المخمور يصحو عندئذ من سكرته . عندئذ يجتازون جميعهم ، دونما عجلة ، هذا الممرّ الذي يصعد تصعيداً خفيفاً حتى مستطيل أزرق من القمر . سيقولون بعض شيء بسيط ، مثل : « يا للهجوم اللعين ... » أو : « الطقس بارد ! » ثمّ يغوصون .

عندما حانت الساعة ، شاهدت يقظة الرقيب . كان ينام متمدّداً على سرير من الحديد ، في أنقاض قبو . وكنت أنظر اليه في سباته . بدا لي انني أعرف مذاق هذا السبات الخالي من

القصص ، ولكنه جدّ هانىء • كان يذكّرني بذلك النهار الأول في ليبيا ، اذ سقطنا ، بريفو وأنا ، بدون ماء ، هالكين ، فتمكنّا ، قبل أن نعاني ظمأ شديداً ، من النوم مرة واحدة ، واحدة ، طوال ساعتين • كان قد تولاّني شعور في أثناء نومي بأني أتمتّع بقدرة رائعة : هي قدرة رفض العالم الحاضر • فما دمت صاحب جسد ما يزال يدعني في سلام ، فلم يعد ثمة ما يميّز بالنسبة اليّ ، بعدما أدسّ وجهي في ذراعيّ ، ليلتي من ليلة سعيدة •

هكذا كان الرقيب يستريح ، ملتفّاً مثل كرة ، ليس له شكل بشري • ولمّا أشعل الذين أتوا لايقاظه شمعة وأثبتوها في فوهة قنينة ، لم أميّز للوهلة الأولى شيئاً ينبجس من الكومة التي لا شكل لها الاّ بسطارين • بسطاران مسمّران ، وحدائد بسطار فاعل مياوم أو حمّال مرفأ •

كان هذا الرجل محتذياً آداة عمل ، وكل شيء ، على جسمه، لم يكن سوى أدوات : الجنادات ، المسدسات ، الحمّالات الجلدية ، النطاق • كان يرتدي سرجاً وطوقاً ، كل عدة حصان

الحراثة • نرى في قاع الأقبية ، في المغرب ، أحجار رحى تجرّها جياد عمياء • هنا ، في ضوء الشمعة الراجف والمحمرّ ، أيقظوا أيضاً جواداً اعمى كي يجرّ رحاه •

« هيًا ! أيها الرقيب ! »

تحرّك ببطء ، مبدياً وجهه ما زال يغشّيه السبات ومغمغماً ما لست أدري • لكنّه عاد الى الجدار رافضاً أن يستيقظ ، وغائصاً من جديد في أعماق السبات كما في سلام بطن أمومي ، كما تحت مياه عميقة ، ممسكاً نفسه بقبضتين يفتحهما ويطبقهما على ما لست أدري اية طحالب سوداء • كان لا بد من حلّ عقدة أصابعه • جلسنا على سريره ، وأمرّ أحدنا ذراعه برفق حول رقبته ، ورفع تلك الرأس الثقيلة مبتسماً • كان ذلك كعذوبة جياد في طيب دفء الاسطبل يداعب بعضها أعناق بعض • « ايه ! ايها الرفيق ! » لم أر في حياتي ما هو اكثر رقّة • بذل الرقيب مجهوداً أخيراً ليعود فيلج أحلامه السعيدة ، ليرفض عالمنا الذي هو من الديناميت ، من ارهاق وليل مثلّج ، ولكن الآوان كان قد فات • ثمة شيء كان يفرض نفسه وافداً من الخارج ، مثلما يوقظ جرس المدرسة ببطء ، نهار الأحد ، الولد

المعاقب • كان قد نسي الطاولة ، اللوح الأسود والعقاب • كان يحلم باللعب في الريف • عبثاً • الجرس يقرع دائماً ويقتاده ، قسراً، الى ظلم الناس • مثله كان الرقيب يستعيد ، شيئاً فشيئاً ، لحسابه، هذا الجسد الذي أبلاه التعب • هذا الجسد الذي ما كان يريده ، والذي سيعرف عمّا قريب ، في برد اليقظة ، تلك الآلام الحزنية في مفاصله ، ثمّ وقر الكسوة ، ثمّ ذلك السباق الثقيل ، فالموت• وليس هو الموت ، بمقدار ما هو اللزوجة في هذا الدم حيث يغمس يديه كي ينهض، ذلك التنفّس العسير، ذلك الثليج حوله•ليس هو الموت بمقدار ما هو شظف الموت • وكنت اتفكّر دائماً ، فيما أنظر اليه ، بوحشة يقظتي نفسها ، باضطلاعي ، على نفقتي ، بالظمأ والشمس والرمل ، باضطلاعي على نفقتي بالحياة • بهذا الحلم الذي لا نختاره •

ولكن ها هو واقفاً ينظر مباشرة في أعيننا :

« أهي الساعة ؟ »

انما هنا يظهر الرجل • ههنا يتفلّت من توقّعات المنطق : كان الرقيب يبتسم ! فما هي اذن تلك التجربة ؟ أتذكّر ليلة في

باريس احتفلنا فيها ، مرموز وأنا ، مع بعض الأصدقاء ، بما لست أدري اية ذكرى ، فألفينا أنفسنا في الشروق عند عتبة حانة ، مشمئزّين لكوننا تكلّمنا هذا القدر من الكلام ، وشربنا الى هذا الحد ، لكوننا منهوكين هكذا دون جدوى . ولكن ، لمّا كانت السماء قد بدأت تشحب ، فقد شدّ مرموز على ذراعي بغتة ، وبشدة شعرت معها بأظافره . « أرأيت ، انها الساعة التي فيها ، في دكار ... » كانت هذه هي الساعة التي يفرك فيها الميكانيكيون أعينهم ، ويسحبون أغطية مراوح الطيّارة ، حيث يمضي الرّبان لاستطلاع الأرصاد ، حيث لا تعود الأرض آهلة الاّ بالرفاق . كانت السماء قد بدأت تتلوّن ، كانوا قد بدأوا يهيّئون العيد انما لآخرين ، لقد راحوا يمدّون شرشف الوليمة التي لن نكون مدعويها . آخرون يجازفون بخطرهم ...

وأنهى مرموز كلامه قائلا :

« هنا يا للقذارة ... »

وأنت ، أيها الرقيب ، الى أية وليمة كنت مدعواً ، اية وليمة تستحق أن يمات من أجلها ؟

كنت قد تلقّيت أسرارك . رويت لي قصّتك : محاسب صغير في ناحية ما من برشلونه حيث كنت تصفّ فيما مضى أرقاماً دون أن تهتم كبير اهتمام بانشقاقات بلادك . ولكنّ رفيقاً تطوّع ، ثم آخر ، ثم ثالث، واذا بك تعاني بدهشة تحوّلا غريباً : مشاغلك بدت لك شيئاً فشيئاً تافهة . مسرّاتك ، وساوسك ، رفاهك القليل ، كل ذلك غدا من عصر آخر . الأهم ما عاد يكمن في هذا . أخيراً بلغك نبأ موت واحد منكم ، قتل صوب ملغا . لم تعد المسألة لتتعلّق بصديق كنت تودّ لو تثأر له . أمّا السياسة فانها لم تقلقك أبداً . ومع ذلك فقد مرّ ذاك النبأ عليك، على مصائرك الضيّقة ، مثل اعصار بحري . رفيق نظر اليك ذلك الصباح :

« نذهب الى الجبهة ؟ »

ـ نذهب .

وذهبتما .

خطرت ببالي بضع صور أفسّر بها لنفسي تلك الحقيقة التي ما عرفت أن تترجمها الى كلمات ولكنّ بداهتها سيطرت عليك .

عندما تمرّ أسراب البطّ البريّ في موسم الهجرات ، فانها تثير حركات مدٍّ وجزر غريبة فوق الأراضي التي تشرف عليها . اذ يشرع البطّ الداجن ، وكأنما هو منجذب بذلك الطيران المثلّث الكبير ، في قفزة غير مألوفة . النداء البرّي أيقظ عنده ما لا أدري أية رواسب برّية . واذا ببطّ المزرعة قد تحوّل لدقيقة عصافير مهاجرة . واذا تلك الرأس الصغيرة الصلبة ، حيث كانت تدور صور متواضعة عن غدير ، عن دود ، عن قنٍّ ، تنشد المتاهات القارية ، نكهة رياح المساحات وجغرافيّة البحار . كان الحيوان الصغير يجهل أنّ دماغه من السعة بحيث يستوعب كل هذه الروائع ، ولكن ها هوذا يصفّق بالأجنحة ، يحتقر الحبوب ، يحتقر الديدان ويريد أن يصير بطّاً برّياً .

ولكني أرى خاصة غزلاني : لقد ربّيت غزلاناً في جوبي . جميعنا ربّينا غزلاناً هنالك . كنّا نحتجزها في حظيرة مسيّجة ، في الهواء الطلق ، لأن الغزلان بحاجة الى الماء الجاري والرياح ، وليس ثمة ما هو رخص مثلها . لقد أسرت فتية ، وها هي تعيش مع ذلك وتكلأ في يدك . انّها تدعك تداعبها ، وتغمس أفواهها الرطبة في قعر يدك . نظنّها استأنست . نظنّ أنّنا حميناها من

الغمّ المجهول الذي يطفىء الغزلان دونما جلبة ويكوّن لها أكثر الميتات رقّة ... ولكن يأتي يوم تجدها فيه وقد أتكأت قرونها الصغيرة على الحاجز ، باتجاه الصحراء . انّها ممغنطه . هي لا تعرف أنها تتجنّبك . الحليب الذي تحضره لها تأتي وتشربه . تدعك أيضاً تداعبها ، وتدسّ فوهها برقة أكثر في كفك ... ولكنك بالكاد تتركها ، حتى تراها ، بعد شبه قفزة سعيدة ، تعود وتتكىء على الحاجز . واذا تركتها لنفسها ، فأنها تبقى هناك ، لا تحاول حتى الكفاح ضد الحاجز ، وانّما تتكىء عليه فقط قذالها المطأطأ ، بقرونها الصغيرة ، وتظلّ هكذا حتى تموت . هل هو موسم الحب ، أو مجرّد الحاجة الى قفز كبير حتى فقدان الأنفاس؟ انها تجهل السبب . ما كانت عيونها قد تفتّحت بعد عندما سبوها لك . انها تجهل كل شيء عن الحرية في الرمال ، كما تجهل رائحة الذكر . ولكنك أنت أذكى منها . الذي تبحث عنه انت تعرفه ، انه المدى الذي يكملها . انّها تريد أن تصير غزلاناً وترقص رقصتها . تريد أن تعرف الفرار في خط مستقيم ، بسرعة مائة وثلاثين كيلومتراً في الساعة ، الفرار الذي تقطّعه طفرات مفاجئة ، كما لو كان هنا وثمة لهب ينبجس من الرمل . ما همّ

بنات آوى اذا كانت حقيقة الغزلان هي أن تذوق الخوف، الخوف الذي وحده يجبرها على تخطّي ذاتها ويستلّ منها أعلى الوثبات ! ما همّ الأسد اذا كانت حقيقة الغزلان هي أن تشقّ بضربة برثن في الشمس ! تنظر اليها وتفكّر : ها هي قد عراها الحنين . الحنين ، انه رغبة ما لا ندري ماذا ... انه موجود ، موضوع الرغبة ، ولكن ما من كلمات لقوله .

ونحن ، ماذا ينقصنا ؟

ماذا ستجد هنا ، أيها الرقيب ، ممّا منحك الشعور بأنّك لم تعد تخون مصيرك ؟ ربما هذه الذراع الأخوية التي رفعت رأسك الملغشنة ، ربّما هذه الابتسامة الرقيقة التي لا تلوم ، ولكنّها تشارك ؟ « ايه ! أيها الرفيق ... » لأن تلوم ، فهذا يعني أنك ما زلت بعد رفيقاً . انك ما زلت بعد منقسماً . ولكنّ هناك ارتفاعاً للوشائج يفقد فيه العرفان بالجميل كالشفقة معناهما . انما هنالك تتنشّق مثل سجين أعتق .

عرفنا هذا الاتحاد عندما كنّا نجتاز ، في سرب من طيّارتين ، منطقة ريو دي أورو ، وكانت ما تزال عاصية بعد . لم أسمع أبداً

غريقاً يشكر منقذه . في أغلب الأحيان كنَّا نشتم بعضنا في أثناء العملية المرهقة ، عملية نقل أكياس البريد من طيَّارة الى أخرى : « أيها القذر ، اذا كنت أصبت بعطل ، فهذه غلطتك وأنت الكلب بالطيران على ارتفاع ألفي متر في صميم التيَّارات المتعاكسة ! لو كنت تبعتني على ارتفاع أقلّ ، لكنَّا الآن في بورت اتيين ! » واذا بالآخر الذي يهب حياته يكتشف نفسه خجلا لكونه قذراً . وعلى م ، في الواقع ، كنَّا نشكره ؟ لقد كان له ، هو أيضاً ، الحق بحياتنا . كنَّا غصون شجرة واحدة . وكنت معتزاً بك ، أنت الذي ينقذني !

لماذا كان ليلومك ، أيها الرقيب ، ذلك الذي كان يعدّك للموت ؟ كنتم تخاطرون بعضكم من أجل بعض . اننا نكتشف في تلك الدقيقة تلك الوحدة التي لم تعد بحاجة الى لغة . لقد فهمت ذهابك . لو كنت فقيراً في برشلونه ، وحدك ربَّما بعد العمل ، لو كان جسدك بدون ملاذ ، لكنت شعرت هنا بأنك تكمل نفسك ، تلحق بالكونيّ . وها أنت ذا المنبوذ يستقبلك الحبّ .

اني لأسخر من معرفة ما اذا كانت مخلصة ام لا ، منطقية أم

لا ، كلمات السياسيين الكبيرة التي ربّما القوا بذارها في نفسك • فان هي نمت فيك ، مثلما ينمو البذار ، فذلك انها تتجاوب ورغباتك • انك الحاكم الوحيد • وانما الأراضي هي التي تعلم كيف تتعرّف الى حبّة القمح •

- ٣ -

عندما يشدّنا الى اخوتنا هدف مشترك يقع خارجاً عنّا ، حينئذ فقط تتنفّس وتدلّنا التجربة على أنّ الحبّ ليس هو أن تتبادل النظرات وانّما أن ننظر معاً في اتجاه واحد • ما من رفاق الاّ اذا هم اتّحدوا في الرباط نفسه ، صوب الذروة نفسها حيث يجدون ذواتهم • والاّ فلماذا نشعر ، في عصر الرفاه نفسه ، بفرح فيّاض اذ نقتسم آخر زادنا في الصحراء ؟ ما قيمة توقّعات علماء الاجتماع هنا ؟ جميع الذين عرفوا من بيننا فرح عمليات الانقاذ الصحراوية الكبير ، غدت كل لذّة اخرى لهم تافهة •

ربما لهذا السبب بدأ عالم اليوم يتصدّع حولنا • كل واحد يتحمّس لأديان تعده بهذا الاكتمال • جميعنا ، بكلمات متناقضة، نعبّر عن الاندفاعات ذاتها • تتقاسم حول مناهج هي ثمار

تفكّراتنا ، وليس حول الأهداف : الأهداف واحدة •

مذ ذاك ، يجب ألاّ نندهش • الذي ما كان ليستشعر بالمجهول الراقد في ذاته ، ولكنّه أحسّه يستيقظ مرة واحدة في قبو فوضويين في برشلونه ، بسبب تضحية من التضحيات ، بسبب التآزر ، بسبب صورة متصلّبة للعدالة ، هذا الرجل لن يعرف بعد سوى حقيقة : هي حقيقة الفوضويين • والذي كان ديدباناً مرة واحدة يحمي شعباً من راهبات صغيرات جاثيات ، مرتعبات، في أديرة اسبانيا ، هذا الرجل سيموت من أجل الكنيسة•

لو انك اعترضت على مرموز ، عندما كان منقضّاً صوب المنحدر الشيلي من الآند ، حاملا انتصاره في قلبه ، بأنّه كان مخطئاً ، وأن رسالة تاجر قد لا توازي المخاطرة بحياته ، لكان مرموز ضحك منك • الحقيقة ، انما هي ذلك الرجل الذي كان يولد فيه عندما كان يجتاز جبال الآند •

اذا كنت تريد أن تقنع بهول الحرب ذلك الذي لا يرفض الحرب ، فلا تنعته بالمتوحش : حاول أن تفهمه قبل ان تدينه •

خذ هذا الضابط في الجنوب الذي كان يتولّى ، في أثناء

حرب الريف ، قيادة موقع متقدّم ، قائم في زاويه بين جبلين عاصيين . لقد استقبل ، ذات مساء ، مفاوضين هبطوا من الجبل الغربي . وكانوا يشربون الشاي ، كما يقضي العرف ، عندما نشبت معركة بالرصاص . كانت قبائل الجبل الشرقي تهاجم الموقع . أراد النقيب أن يطردهم ليقاتل ، ولكن المفاوضين الأعداء أجابوه : « نحن اليوم ضيوفك . والله لا يسمح بأن تتخلى عنك ... » . وانضمّوا اذن الى رجاله ، أنقذوا الموقع ، ثم عادوا فتسلّقوا الجبل صوب عشّهم ، عشّ النسر .

ولكنهم في عشية اليوم الذي اخذوا فيه يتأهبون بدورهم للهجوم عليه ، أرسلوا مندوبيهم الى الرقيب :

« مساء أمس ، ساعدناك ...

ــ هذا صحيح ...

ــ احرقنا من أجلك ثلاثمائة خرطوشة ...

ــ هذا صحيح

ــ انّه لمن الانصاف أن تعيدها الينا » . واذا بالرقيب ، وهو

السيّد النبيل ، يترفّع عن استغلال امتياز يستمدّه من نبلهم ، فيعيد اليهم الخرطوش الذي سيستخدمونه ضدّه .

الحقيقة بالنسبة الى الانسان هي ما يجعل منه انساناً . عندما يقوم ذلك الرجل الذي عرف تلك الكرامة في الوشائج ، تلك النزاهة في اللعب ، تلك الموهبة المتبادلة من التقدير الذي يلزم الحياة، بمقارنة بين ذلك السموّ الذي أتيح له وضعف طيبة الفوضوي الذي كان ليعبّر عن أخوّته لأولئك الأعراب انفسهم بتربيته على أكتافهم تربيتاً كبيراً ، متملّقاً اياهم ولكنّه في الوقت نفسه مذلّهم ، هذا الرجل لن يشعر نحوك ، اذا فكرت عكسه ، بسوى شفقة يشوبها شيء من الاحتقار . وانه هو الذي سيكون مصيباً .

ولكنّك ستكون على حق أيضاً عندما تكره الحرب .

لكي نفهم الانسان وحاجاته ، لكي نعرفه في ما يملكه من جوهري، يجب ألاّ تعارضا بداهة حقائقكما الواحدة مع الاخرى. أجل . انكم مصيبون . انكم جميعاً مصيبون . المنطق يبرهن كل شيء . ومصيب أيضاً ذلك الذي يلقي تبعة شقاء العالم على الحدب . اذا نحن شهرنا الحرب على الحدب ، فسنتعلّم بسرعة

أن تتحمَّس • اننا نثأر لجرائم الحدب • ولا ريب أنَّ الحدب أيضاً يقترفون جرائم •

يجب ، من أجل ابراز هذا الجوهري ، أن ننسى لحظة الانقسامات التي ، اذا ما قبلنا بها ، جرَّت قرآناً بكامله من الحقائق التي لا تزعزع والعصبيَّة الناجمة عنها • يمكننا أن نقسم البشر الى يمينيين ويساريين ، الى حدب وغير حدب ، الى فاشستيين وديموقراطيين ، وهذه التمييزات لا تفنَّد • ولكنَّ الحقيقة ، كما تعرفون ، انما هي ما يبسِّط العالم وليس ما يخلق الفوضى • الحقيقة هي اللغة التي تبرز الكوني • ان نيوتن لم « يكتشف » بتاتاً ناموساً ظلَّ زمناً طويلا متوارياً على غرار حلٍّ للأحاجي • نيوتن قام بعملية خلاَّقة • لقد أسس لغة رجل استطاع أن يعبِّر عن سقوط تفاحة في حقل أو عن صعود الشمس في آن معاً • الحقيقة ، ليست بتاتاً ما يبرهن ، انها ما يبسِّط •

ماذا يفيد الجدل في العقائد ؟ اذا كانت جميعها تبرهن ، فجميعها تتعارض أيضاً ، وان مثل هذه المناقشات تحمل على القنوط من خلاص الانسان • فيما الانسان ، في كل مكان ،

حولنا ، يعرض الحاجات ذاتها •

نريد أن نعتق • من يضرب ضربة رفش يريد أن يدرك معنى لضربة رفشه • وضربة رفش المحكوم بالاشغال الشاقة ، التي تذلّ المحكوم ، ليست هي بتاتاً ضربة الرفش ذاتها التي يضربها المنقّب عن المعادن، التي تكبّر المنقّب عن المعادن• الاشغال الشاقة ليست هنالك حيث يضرب اناس بالرفش • ليست هي عذاباً بدنياً • الاشغال الشاقة توجد هناك حيث يضرب قوم بالرفش ضربات لا معنى لها ، ضربات لا تربط الضارب بأسرة البشر •

ونحن نريد أن نفرّ من المنفى •

في اوربا مائتا مليون نسمة لا معنى لهم ويودّون أن يولدوا! • لقد اجتثّتهم الصناعة من لغة الأنساب القروية وأسرتهم في تلك المعاقل الضخمة التي تشبه محطّات الفرز الغاصّة بقوافل القاطرات السوداء • من اعماق الحواضر العمّاليّة يودّون ان يوقظوا •

وثمّة آخرون ، أخذوا في عجلة جميع المهن ، وقد منعت عليهم أفراح الطلاّع ، الأفراح الدينية ، أفراح العالم • ظننّا أنه يكفي

لانمائهم ان نكسوهم ، ان نغذّيهم ، ان نلبّي جميع رغباتهم •
وهكذا أسّسنا فيهم ، رويداً رويداً ، برجوازيّ كورتلين الصغير،
سياسيّ القرية ، التقنيّ المنغلق على الحياة الداخلية • واذا كنّا
نعلّمهم جيّداً ، فاننا لا نثقّفهم • يكوّن لنفسه رأياً
حقيراً عن الثقافة ذلك الذي يظنّ أنها تقوم في حفظ المعادلات •
تلميذ ضعيف من صفوف الرياضيات يعرف عن الطبيعة وعن
نواميسها أكثر من ديكارت وباسكال • فهل هو قادر على المنجزات
العقلية ذاتها ؟

جميعهم يشعرون ، بوضوح متفاوت ، بالحاجة لأن يولدوا•
ولكن ثمة حلولا تخدع • أكيد نستطيع أن نحب البشر بالباسنا
اياهم الثياب العسكرية • عندئذ ينشدون أناشيدهم الحربية
ويقسمون خبزهم في ما بينهم كرفاق • يكونون قد وجدوا ما
يبحثون عنه ، نكهة الكوني • ولكنهم ، من الخبز المقدّم اليهم ،
سيموتون •

نستطيع أن ننبش الأصنام الخشبية ونبعث الأساطير القديمة
التي أبتت ، بنجاح متفاوت ، وجودها • نستطيع أن نبعث

متصوّفي التوسعيّة الجرمانية ، أو الأمبراطورية الرومانية . نستطيع أن نسكر الألمان بنشوة كونهم ألماناً ومواطنين لبتهوفن . نستطيع أن نسكر بذلك حتى واقدي السفن . ان هذا ، أكيداً ، لأسهل بكثير من ان نخرج ، من واقد سفينة ، رجلا كبتهوفن .

على ان مثل هذه الأصنام هي أصنام مفترسة . الذي يموت من اجل تقدّم المعارف أو شفاء الأمراض ، مثل هذا يخدم الحياة، في الوقت نفسه الذي يموت فيه . ربما كان جميلا الموت من أجل توسيع أرض ، ولكن حرب اليوم تدمّر ما تزعم أنها تعمّر . لم تعد المسألة اليوم مسألة تضحية شيء من الدم لانعاش السلالة كلها . الحرب ، منذ ما هي راحت تشنّ بواسطة الطيّارة والغاز ، لم تعد سوى جراحة دموية . كل فريق يحتمي بجدار من الاسمنت ، كل فريق لا يجد أفضل من أن يطلق ، ليلة بعد ليلة ، أسراباً تقصف الآخر في أحشائه ، تدمّر مراكزه الحيوية ، تشلّ انتاجه وتبادلاته . النصر هو لمن ينتن في الأخير . والخصمان ينتنان معاً .

في عالم غدا قفراً ، كنّا عطاشاً لأن نعود فنجد رفاقاً : انّ

طعم الخبز المتقاسم بين الرفاق جعلنا نقبل بقيم الحرب • ولكنّنا لسنا بحاجة الى الحرب كي نجد دفء الأكتاف المتجاورة في سباق نحو الهدف الواحد • الحرب تخدعنا • الحقد لا يكسب حماس السباق شيئاً •

لماذا نتحاقد ؟ انّنا متضامنون ، يحملنا كوكب واحد ، ملاّحو سفينة واحدة • واذا كان من الخير أن تتعارض الحضارات لتتيح نشوء تأليفات جديدة ، فانه لمن الفظاعة أن يفترس بعضها بعضاً •

بما أنّه يكفي ، لكي نعتق ، أن نتعاون على وعي غاية تربطنا بعضنا ببعض ، فلنبحثن عنها هناك حيث توحّد بيننا جميعاً • الجرّاح الذي يطوف على المرضى لا يستمع الى شكاة المريض الذي يفحصه : فهو انما يسعى ، عبر هذا ، الى شفاء الانسان • الجرّاح يتكلم لغة كونية • كذلك الفيزيائي عندما يروح يتأمّل تلك المعادلات شبه الالهية التي بها يدرك الذرّة والمجرّة معاً • وهكذا حتى الراعي البسيط • لأن هذا الذي يسهر بتواضع على بضعة خراف تحت النجوم، لو هو ادرك دوره،

لاكتشف نفسه أكثر من خادم • انه حارس • وكل حارس مسؤول عن الأمبراطورية كلها •

أو تظن أن هذا الراعي لا يتشو ّق لأن يعي ؟ لقد زرت ، على جبهة مدريد، مدرسة انشئت على خمسمائةمتر من الخنادق، خلف جدار صغير من الحجارة ، فوق رابية • كان عريف يلقي فيها دروساً في علم النبات • وفيما كان ينتزع بيديه الأعضاء الرخصة لأقحوانة ، كان يجتذب اليه حجّاجاً من اناس ملتحين يبرزون من الوحل الذي يغمرهم ، ويصعدون اليه ، رغم القنابل ، كما في حجيج • وما أن يلتفوا حول العريف حتى يأخذوا في الاصغاء اليه ، متربّعين ، وقد أتكأ كل منهم ذقنه الى قبضة يده • كانوا يقطّبون حواجبهم ، يصرفون بأسنانهم ، اذ ما كانوا يفقهون كبير شيء من الأمثولة ، ولكن كان قد قيل لهم : « انتم أجلاف ، وبالكاد خرجتم من أوجاركم ، وعليكم اللحاق بالانسانية ! » وكانوا يخفّون بخطاهم الثقيلة لادراكها •

عندما نعي دورنا ، مهما كان بسيطاً ، فحينذاك فقط نصبح سعداء • حينذاك فقط نستطيع أن نعيش بسلام ونموت بسلام ،

لأنّ ما يمحض معنى للحياة يمحض معنى للموت •

وانه لجمّ العذوبة عندما يكون في سياق الأشياء ، عندما يسلّم قروي البروفانس الشيخ ، في نهاية عهده ، بناءه نصيبهم من الماعز والزيتون كي ينقلوه ، بدورهم ، الى حفدتهم • لا يموت الانسان الاّ نصف ميتة في الأسر القروية • كل حياة تنصدع بدورها مثل قرن النبات وتسلم حبّاتها •

رفقت ، ذات مرة ، ثلاثة فلاحين ، حيال سرير موت والدتهم • وكان ذلك ، دون ريب ، مؤلماً • للمرة الثانية كان قد انقطع الحبل السرّي • للمرّة الثانية كانت عقدة تنحلّ : العقدة التي تربط جيل بآخر • اكتشف هؤلاء الأبناء الثلاثة أنفسهم وحيدين ، عليهم أن يتلقّنوا كل شيء ، محرومين من مائدة عائلية يلتفّون حولها أيّام العيد ، محرومين من القطب الذي كانوا يلتقون أنفسهم فيه جميعاً • ولكنّي اكتشفت أيضاً ، في هذه القطيعة ، أنّ الحياة يمكن أن تعطى للمرة الثانية • هؤلاء الأبناء سيغدون ، هم أيضاً ، بدورهم ، رؤساء أسر ، أماكن ملتقى وارباب رتل ، حتى الساعة التي يسلّمون فيها ، بدورهم ، القيادة الى ذلك

البطن من الصغار الذين يلعبون في الفناء .

نظرت الى الأم ، تلك القروية العجوز ذات الوجه الهانىء والقاسي ، ذات الشفتين المزمومتين ، هذا الوجه الذي تحوّل قناعاً من حجر فعرفت فيه وجه الأبناء . هذا القناع استخدم لطباعه قناعهم . هذا الجسد استخدم لطباعة هذه الأجساد ، هذه النسخ الجميلة من الرجال . والآن ، انّها ترتاح مصدوعة ، انما مثل غلاف ثمرة سحبت منه ثمرته . وبدورهم ، صبية وصبايا ، وبلحمهم ، سيطبعون رجالا صغاراً . لا يموت الانسان في المزرعة. ماتت الأم ، فلتحيا الأم !

أليمة ، نعم ، ولكنها غاية في البساطة هذه الصورة للأسرة تتخلّى ، في طريقها ، عن رفاتها الجميلة ذات الشعور البيض ، واحداً تلو آخر ، في سيرها نحو ما لا أدري اية حقيقة ، عبر تحوّلاتها .

لهذا السبب بدا لي ناقوس الموتى ، ذلك المساء ، في تلك القرية الريفية مثقلا ، ليس باليأس ، وانّما بفرحة خفرة ورقيقة . ذلك الناقوس الذي يحتفل ، بالرنين نفسه ، بالجنازات والعمادات،

يعلن مرة أيضاً العبور من جيل الى آخر • ولا نستشعر بسوى سلام كبير لسماعهم يغنّون خطوبة عجوز مسكينة من الأرض •

الذي كان ينقل هكذا من جيل الى جيل ، بالتقدّم البطيء الذي يشبه نموّ الشجرة ، انما كان الحياة ولكنه أيضاً الوعي • يا للترقّي الخفيّ ! من حمم بركانية مصوّحة ، من عجينة نجمة ، من خليّة حيّة أخصبت بمعجزة، سمونا حتى كتابة الأناشيد ووزن المجرّات •

لم تكن الأم قد نقلت الحياة فقط : لقد علمت أبناءها لغة ، لقد ائتمنتهم زاداً جمع بمزيد بطء طوال العصور ، ائتمنتهم الارث الروحي الذي كانت هي نفسها قد تسلّمته وديعة ، هذه القطعة الصغيرة من التقاليد ، من المفاهيم والاسطارات التي تؤلف كامل الفرق الذي يفصل نيوتن أو شكسبير عن جلف الكهوف •

ما نشعر به عندما نجوع ، عندما نشعر بذلك الجوع الذي كان يدفع جنود اسبانيا تحت الرصاص صوب درس النباتيّات ، الجوع الذي دفع مرموز نحو الاطلنطي الجنوبي ، الذي يدفع الآخر نحو قصيدته ، هو أن سفر التكوين لم يكتمل بعد وأنّ

علينا أن نعي أنفسنا والكون • علينا أن نلقي معابر في الليل • وحدهم يجهلون ذلك أولئك الذين جعلوا حكمتهم من لامبالاة يظنونها أنانية • ولكنَّ كلَّ شيء يكذِّب تلك الحكمة ! ايها الرفاق ، يا رفاقي ، اني استشهدكم : متى شعرنا بأننا سعداء ؟

— ٤ —

وها اناذا أتذكَّر ، في الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب ، اولئك البيروقراطيين الذين شاخوا وكانوا يؤلِّفون لنا الموكب ، فجر أول بريد ، لما كنَّا نتهيأ للارتقاء الى مرتبة الرجال ، وقد حظونا بتعييننا • لقد كانوا ، مع ذلك ، شبيهين بنا ، لكنَّهم ما كانوا يعرفون قط أنهم جائعون •

ما أكثر من نتركهم نائمين من الناس •

لبضع سنوات خلت ، وفي أثناء رحلة طويلة في القطار ، أردت زيارة الوطن السائر حيث حجزت نفسي لثلاثة أيام ، أسيراً ثلاثة أيَّام لهذه الجلبة من الحجارة التي يدحرجها البحر،ونهضت• اجتزت حوالى الساعة الواحدة صباحاً القطار بطوله • كانت مقطورات النوم خالية • عربات الدرجة الأولى خالية •

واما عربات الدرجة الثالثة فكانت تأوي مئات من العمّال البولونيين المسرّحين من فرنسا والعائدين الى بولونيا • واجتزت الممرّات متخطّياً الأجساد • توقفت لأنظر • وتحت النوّاصات كنت ابصر في هذه المقطورة غير المقسّمة ، والتي تشبه مهجعاً للجنود وتفوح منها رائحة الثكنة أو مخفر الشرطة ، كان شعب بكامله مختلطاً مخضوضاً بحركات القطار • شعب بأسره غائص في الأحلام المزعجة يعود الى بؤسه • أطفال ، حليقو الرؤوس ، كانوا يتدحرجون على خشب المقاعد • رجال ، نساء ، أطفال،جميعهم،كانوا يستديرون يمنة ويسرة وكأنما انقضّت عليهم جميع هذه الضوضاء ، جميع هذه الخضّات التي تهدّدهم في نسيانهم • انهم لم يجدوا ضيافة سبات هانىء •

وها هم اولاء يبدون لي وكأنهم فقدوا نصف صفتهم الانسانية ، تتقاذفهم التيارات الاقتصادية من طرف الى آخر في أوروبة ، وقد أقتلعوا من البيت الصغير في الشمال ، من الحديقة الصغيرة ، من ثلاثة أحواض الجيرانيوم التي كنت قد لاحظتها في ما مضى على نافذة عمّال المناجم البولونيين • لم يحملوا معهم سوى أدوات المطبخ ، الأغطية والستائر ، في صرر سيئة الربط

تطرزه بالفنوق • ولكن كلّ ما داعبوه أو فتنوه ، كلّ ما كانوا قد ظفروا باستئناسه في أربع أو خمس سنوات من اقامتهم في فرنسا : الهر ، الكلب والجيرانيوم ، كان عليهم أن يضحّوا به فلا يحملون معهم الاّ هذه الأدوات المطبخية •

كان طفل يرضع أماً موهنة بحيث تبدو مستسلمة للسبات • الحياة تنتقل في لا معقول هذه الرحلة وفي فوضاها • رنوت الى الوالد ، جمجمة ثقيلة وعارية مثل الحجر • جسد منطو في شظف السبات ، سجين ثياب العمل ، مكوّن من نتوء وحفر • كان الرجل شبيهاً بكومة صلصال • هكذا ، في الليل ، تثقل رمم لم يعد لها شكل ، مقاعد أسواق الخضار • وفكّرت : المشكلة ليست في هذا البؤس ، في هذه القذارة ، ولا في هذه البشاعة • ولكن هذا الرجل ذاته وهذه المرأة ذاتها قد تعارفا ذات يوم وابتسم الرجل دون ريب للمرأة : لقد حمل اليها ، دون شك ، بعد العمل ، أزهاراً • ولعلّه كان يرتجف ، حيياً مرتبكاً ، خوفاً من أن يقابل بالاعراض • ولكنّ المرأة كانت ، بدافع غنجها الطبيعي ، المرأة الواثقة من نعمائها ، لعلّها كانت تتلذّذ بتعذيبه • واذا به ، وهو الذي لم يعد اليوم سوى آلة للنكش أو للطرق ، يشعر هكذا

بالغصَّة العذبة في قلبه . السرّ ، هو أن يكون قد باتا هاتين الصرَّتين من الصلصال . في أي قالب رهيب وضعا ، فوسمهما كما بآلة للتحديب . ان حيواناً شائخاً يظل محتفظاً برشاقته . فلماذا هذا الصلصال البشري الجميل قد أتلف ؟

وتابعت رحلتي بين هذا الشعب الذي كان سباته معكَّراً مثل مكان عاطل . كانت تطفو جلبة مبهمة مؤلَّفة من غطيط أجشّ ، من شكاة غامضة ، ومن تراطم أمدسة اولئك الذين ارتضّ جانب منهم فانقلبوا يجرّبون الجانب الآخر . ودائماً تلك الجلبة الصمَّاء التي لا تنضب ، جلبة الحجارة التي يقلّبها البحر .

جلست حيال زوجين . كان الطفل قد اتخذ لنفسه ، كيفما اتفق ، فجوة بين الرجل والمرأة ، وغفى . ولكنه استدار في السبات وبدا لي وجهه تحت ضوء النوّاصة . يا للوجه الآسر ! كان قد ولد من هذين الزوجين نوع من ثمرة ذهبية . كان قد ولد من هذه الاسمال الثقيلة هذا الانتصار للفتنة والاشراق . انحنيت على هذه الجبهة الملساء ، على هذه الغمزة العذبة للشفتين ، وقلت لنفسي : هوذا وجه موسيقي ، هوذا موزار طفل،

هوذا وعد جميل من وعود الحياة • أمراء الخرافات الصغار لم يكونوا مختلفين عنه بتاتاً : فما عساه لا يغدو لو هو حمي ، تعهّد وثقّف ! عندما تولد باللّقاح وردة جديدة في الجنائن ، يهرع نحوها جميع البستانيين • يعزلون الوردة ، يتعهّدون الوردة ، يؤثرونها • ولكن ما من بستاني للناس • وسوف يوسم موزار طفلا بميسم الآلة كالآخرين • سوف يضع موزار أسمى أفراحه من الموسيقى المنتنة ، في عفن الملاهي ــ الموسيقية الرخيصة • ان موزار مقضي عليه •

عدت الى مقطورتي ، وانا اقول لنفسي : هؤلاء الناس لا يتعذّبون بتاتاً من مصيرهم • وليست هي الرحمة التي تعذّبني هنا • ليست المسألة مسألة تحنّن على جرح مفتوح الى الأبد • الذين يحملونه لا يحسّون به • ما هو مجروح هنا ، ما هو مغبون ، انما هو شيء يشبه النوع البشري وليس الفرد • لا أومن ابداً بالشفقة • ما يعذّبني ، هو وجهة نظر البستاني • ما يعذّبني، ليس هو هذا البؤس حيث قد نستقر ، على اي حال ، كما في الكسل • أجيال من الشرقيين تعيش في الأقذار وتنعم فيها • ما يعذّبني ، الوجبات الشعبية لا تشفيه قط • ما يعذّبني ، ليس

هو هذه الحفر ، ولا هذه النتوء ، ولا هذا القبح . ما يعذّبني هو ، الى حد ما ، في كلٍّ من هؤلاء الناس ، موزار مذبوحاً .

وحده الروح ، اذا نفخ في الصلصال ، يستطيع ان يخلق الانسان .

المنشورات العربية